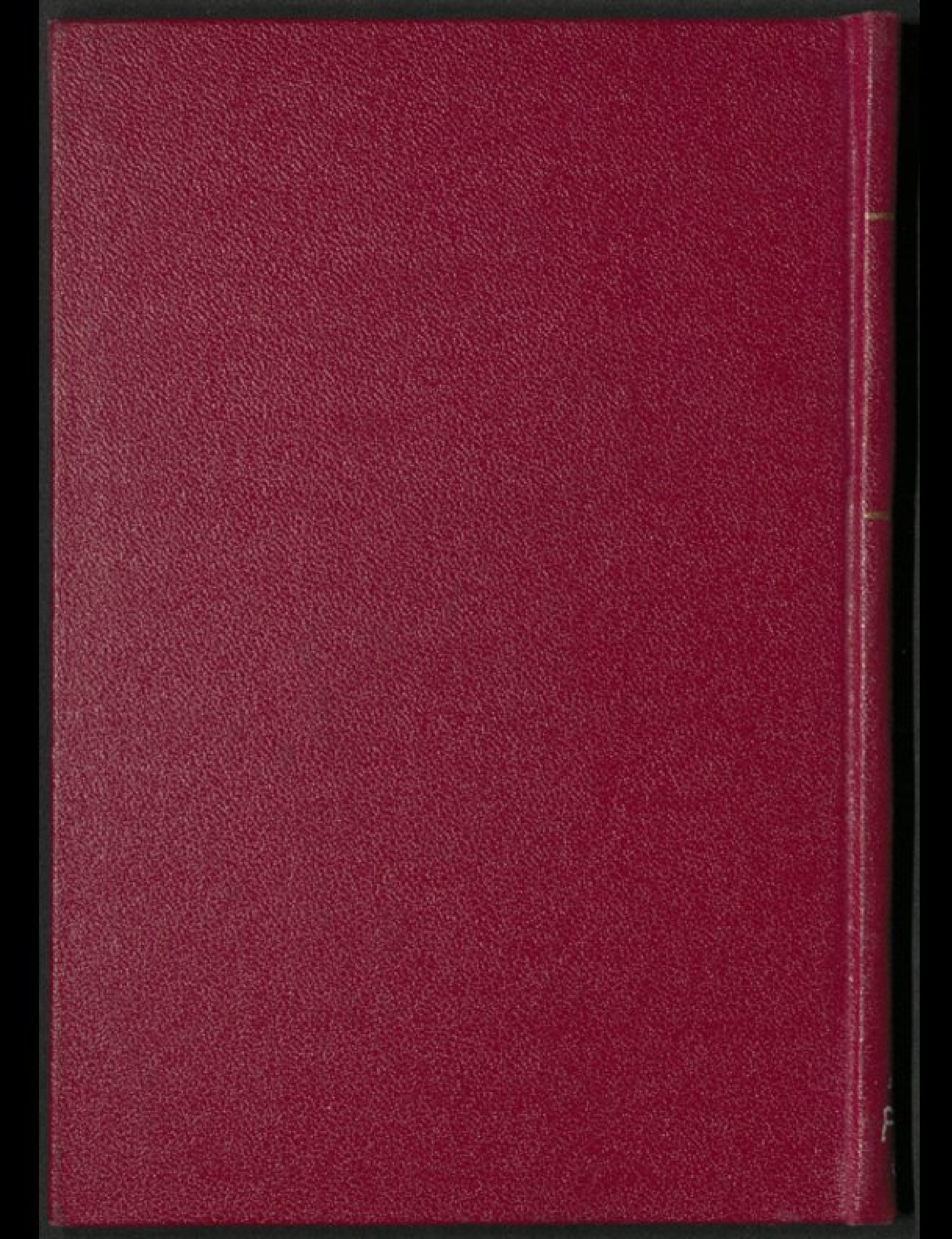


بوذا

دين الخلاص

●

بين الرجال العظام الذين قادوا المجتمع البشري،وظهروا فيه كالأعلام على مدار الحقب ، وتركوا في اديم الحياة الانسانية آثاراً عميقة لا تمحوها رمال الزمن تتجلى لنا من اعماق الماضي البعيد ،على ضفاف الكانج ومن خلف غابات الهند الأزلية ،صورة بوذا مؤسس الديانة الهندية .

يُقال انه حتى العشرين او الثلاثين من عمره لم يكن يعرف شيئاً مما يجري حوله من تصاريف الايام لالتزامه بيته حيث كان يقيم معه استاذ يسهر على تربيته وثقافته . ولما خرج للمرة الاولى بصحبة استاذه لاقى في طريقه اول ما لاقى شيخاً محدودب الظهر مجعد الجبين يمشي متوكأ على عصاه . فسأل رفيقه لماذا يمشي الرجل هكذا ؟ فاجابه : لانه عجوز هرم .قال : وما يعني ؟ قال : انه بلغ من العمر عتياً فوهنت قواه وهزل جسده وثقلت خطاه الى آخر ما يتبع ذلك من عيوب الشيخوخة . وما ابتعد غير قليل حتى لفت نظره مريض مطروح على قارعة الطريق كعادة تلك الاجيال في عرض مرضاهم على المارّة فسأل عنه فقال له الرفيق :هذا مريض يعني انه كان قوياً فصار ضعيفاً ، وكان يمشي

اميالاً فلا يتعب وهو اليوم لا يستطيع ان يخطو خطوة ، وكان يأكل بشهية فانقطعت عنه القابلية ، وكان لا يشكو المـاً وهو اليوم كثير الأنين الى آخر ما يرافق الداء من الم وعذاب . ثم تابع سيره فالتقى بجنازة فسأل ما الخبر ؟ فقال له معلمه : هذا ميت يعني كانت فيه حياة فذهبت ، وكان قلبه خفاقاً فسكن ، وكانت عيناه تبصران فزال منهما النور ، واذناه تسمعان فاصابهما الصمم ، ولسانه يتكلم فنابه الخرس ، فهو الآن في عالم غير عالمنا هـذا .

أثرت هذه المشاهد في الامير الشاب تأثيراً عميقاً فارتد ادراجه الى القصر وذهب تواً الى ابيه الملك وقال : الا يمكنك يا ابتاه ان تمنع الهرم والمرض والموت ؟ فاجابه ابوه : انك تطلب المستحيل يا بُني . وكان هذا الجواب كافياً ليتبين بطلان تعاليم البراهمة فهجر قصر ابيه ولسان حاله يقول : تعساً للشباب الذي يغلبه الهرم ! تعسا للصحة التي تهدمها الامراض ، تعساً للحياة التي يفنيها الموت .

هجر قصر ابيه الملك واتخذ عزلته في الغاب بعيداً عن الناس يعيش عيشة التقشف ، ذاهباً في تأملاته كل مذهب ، باحثاً عن دين يكون اقرب للانسانية فاطلقوا عليه اسم ساكياموني اي ناسك ساكياس ، قبل تلقيبه ببوذا اي الحكيم الاكبر .

ومن هذه العزلة خرجت تلك الديانة القاتلة لاحساس الانسان وشهواته ومنها ارتفع ذلك الصوت القائل بغرور الحياة الداعي الى الزهد ، طالباً وسط مفاسد العهـد القديم ان يتجافى الناس مضاجع اللذة والسرور ، قاتلين الرغبة بالتأمل ، والتأمل بالغيبوبة ، والغيبوبة بالفناء ، حتى يصلوا الى الغاية القصوى من الخير وهي

النرفانا اي العَـدَم .

والذي سهّل انتشار هذه التعاليم الناتجة عن التشاؤم واليأس تلك العقيدة السائدة في الهند من تناسخ الارواح اي التقمص . فالحياة الابدية في الهند اشبه بكابوس . يولد المرء ويتألم ويموت ثم يولد ثانية ليتألم ابداً ويموت كذلك، وهكذا دواليك كأنمـــا هي اشغال شاقة على الانسان ان يتحملها في طريق الأبد .

وقد اراد بوذا تخليص الانسانية من هذا الكابوس فلم يجـــد سوى حل وحيد لذلك ، وهو اخماد عطش الانانية . ففي إطفاء «انا» كل النرفانا، وذلك بمحاربة الشهوات وتضحية الفرد للمجموع والرحمـــة الشاملة ، ولو اقتضت ان نضحي بانفسنا في سبيل سائر الخلائق من انسان وحيوان . وهذه التعاليم السلبية فيما يتعلق بما وراء المادة نتيجتها العملية ادبٌ كله إنكار ذات وعفـة ورفق ومحبـــة .

ولايخفى ما في هذه التعاليم من سحر الاغواء، وهذامايفسّر لك انتشار البوذية الواسع فيما بعد . والذي يخلع عليها جاذبية خاصة هو الروح الشعرية التي تفيض حناناً في تلك الاساطير عن الحياة المتعددة السابقة التي مر بها بوذا في تقمصه انساناً وحيواناً . فهنا ملك الوعول يضحي نفسه من اجل رفاقه ، وهنـا ارنب يطرح نفسه في النار ليطعم احد البراهمة الجائعين ، وهنا ملك الفيـــلة يقدم انيابه لقاتله الى غير ذلك .

وكان اول ما بُشر بالبوذية في مناطق الكانج الشرقية ومنها امتدت الى سائر الهند . والقائمون على هذه الكنيسة جماعة من

الرهبان في الاديرة يحف بهم عدد من العوام المخلصين . ولا ريب انه في العصور الاولى قد تقلب على البوذية احوال تبعاً للزمان ولحاجات القلب البشري فان الوقوف عند بوذا التاريخ اصبح غير كاف لان انطفاءه بالنرفانا جعل الوصول اليه بالصلاة صعباً ، فخلق الايمان عدداً غير قليل من اشباه بوذا هم بوذوات المستقبل. هؤلاء ينتظرون في جنات تجري من تحتها الانهار ان تدق ساعة تجسدهم ، وفي مدة هذا الانتظار يُعنون بخلاص الخلائق . وقد وجد بين هؤلاء من فاق بوذا التاريخ في استمالة الشعب اليه فلقب بالمسيح او العناية او النور غير المتناهي وكان له شأن لدى انتشار الديانة في انحاء الشرق الاقصى .

هذه الصور الروحانية التي تقطر شفقة ورحمة كانت تخلق من حولها في عقول الناس وقلوبهم جواً من اليقين والتقوى والحنان لا مثيل له في آسيا الشرقية . وقد اخذت الصين بوجه خاص تجد فيها عالماً روحانياً جديداً ،ولاقت فيها الفكرة الفلسفية غذاء لا ينفد بفضل ما وراء الطبيعة الذي اقتحم البوذية الهندية في المئة الاولى من التاريخ المسيحي. فاتجهت الافكار الى مُثل عليا مطلقة قائمة على النظر الى العالم والى « انا » كأنهما غير موجودين حقيقة . ومن جانب آخر فان الجماعات كما قلنا كانت تجد نفسها مجذوبة بسحر هذه الاساطير الكثيرة المختصة بكل بوذا من بوذوات المستقبل وهذه الصور الناعمة اللطيفة ، وحياة القديسين ، ولمعان الفراديس والجحيم فضلاً عما كان يغريها به الفن البوذي نفسه .

كان الفن الهندي حتى بداية التاريخ المسيحي فناً لا يخلو من

الجمال لانه من وحي طبيعة الهند الازلية. غير انهم ما كانوا يجرأون في الزمن الاول على تصوير بوذا لتحريمه كما حرّم تصوير الله في ديانات أخرى . ولا ريب ان هذا التحريم لم يكن عن احترام فحسب بل فيه دخل كبير للمنطق لانه ليس من المعقول ان تحيي بالرسم من محته النرفانا اي من ذهبت ذاتيته، فكانوا يعتاضون عن تمثال بوذا حتى في مشاهد الحياة اليومية برموز متفق عليها . ولكن هذه النظرية تغيرت عندما تطرقت اليونانية الى شمال غربي الهند لعهد ملوك اليونان خلفاء الاسكندر ثم لمن جاء بعدهم من ملوك الشيت .

لقد شعر اليونان الذين اهتدوا الى البوذية بالحاجة الى تمثيل بوذا تمثيلاً صحيحاً حقاً ، ولم يجدوا امامهم سوى الههم ابولون ليأخذوا عنه فقلدوه . واول تمثال صنع لبوذا في اوائل العهد المسيحي في غندارة ، وهو صورة طبق الاصل لابولون مع زيادة الطابع العقيدي كنقطة الحكمة بين العينين وغفرة الرأس ، وطول شحمة الاذن لثقل القرط الذي كان يعلقه بها بوذا ايام كان اميراً .

هذا المثال اليوناني لبوذا ذو الملامح الابولونية والمطارف اليونانية الذي كشف عنه التنقيب في آثار غندارة وكابول سيجوب الزمان والمكان من خلال آسيا الوسطى حتى الصين واليابان مكتسباً في سفرته الطويلة بعض التغيرات ، والتطبع بطابع صيني، حاملاً تذكارات ماضيه اليوناني في الصورة والهندام .

وقد جاء انتشار البوذية في الصين متأخراً اي في السنة الستين

من التاريخ المسيحي ، وبوذا مات حوالى سنة (٤٨٠) ق . م . فكانها بقيت منحصرة في الهند ستمئة سنة قبل تمشيها الى الصين حيث استقبلت بادىء ذي بدء كبدعة من تعاليم تاو ، كما استقبل الرومان المسيحية كبدعة يهودية . وقد حملت البوذية الى الصين فكر الهند وفن الاغريق وشيئاً من حضارة ايران ، غير ان نجاحها لم يطل ، وبعد ان استفادت من بعض الشبه بينها وبين تعاليم تاو قام التاويون عليها وناهضها كذلك اشياع كونفوشيوس ونعتوها بالغريبة لانها تقضي على الاسرة اذ ان البوذي لا يهتم الا بنفسه . ولا تزال الحرب سجالاً حتى اليوم ، والكونفوشيوسية وحدها دين الدولة ودين الملك .

*

لقد رسم بوذا للعالم القديم طريق الخلاص كما رآها ، وقال له : لا تنسَ في هذه الطريق ان تمد الى الانسانية يد المعونة فترحم كل حي ، وتعفو عن كل مذنب ، وتنسى كل اهانة ، وتعامل بالرفق والحق والجود اخوانك في هذا الوجود .

والبوم ، بعد مرور خمسة عشر قرناً على بوذا وبعد من تبعه من المصلحين والانبياء والرسل ، وهذه الاديان التي تنهى عن المنكر وتأمر بالمعروف ، وبعد التقلبات الهائلة التي منيت بها الانسانية ، لا يزال الظمأ شديداً الى هذه المبادىء والتعاليم كأننا لم نزل في الاعصر الاولى ، أعصر الجهل والتباغض والعدوان ...

كونفوشيوس

دين الاصلاح

●

لقد ظهرت على مسرح هـــذا الوجود دول شتى بلغت من حضارتها الاوج ثم توارت تاركة أثاراً تدلّ عليهـا ، وتحدّث عن خالي عظمتها ، كأقواس النصر ، والاهرام ، والعمد ، والهياكل ، وما شاكل . ولكن أبقى الآثار وأبعدها مدى في تصريف حياة الشعوب هي بدائع العقل البشري وما كانت تجود بـــه أدمغة العباقرة حينا بعد حين فتقيمه كمنائر في طريق الحياة هدى للعالمين .

وفي هذه الايام العصيبة التي تبرز فيها الصين على المسرح العالمي كدولة كبيرة ، يجدر بنا ان نعود قليلا الى ماضيها الحافل بالآثار الادبية ، فنراجع تعاليم أعظم فيلسوف انجبته هذه البقعة العجيبة التي يتصل نسبها بمهد البشرية كما تتصل هي بمهد الشمس .

لقد تعاقب على الشرق منذ القدم ثورات وانقلابات بدّدت معالمه وقوضت عروشه وماتزلت الى القبر حضارات أمم عظيمة لمعت في آفاقه منذ أربعة آلاف سنة ولم يبق منهـا اليوم سوى اطلال دارسة وآثار طامسة . هـذه مملكة داريوس التي حفظت لنا كتب زرادشت شيئا من شرائعهـا ، نحاول اليوم ان نتبين رسومها من خلال المخطوطات المسمارية لبابل وبرسوبوليس . وهذه

دولة الفراعنة التي اضطجعت في اهرامها الخالدة بعد ان خلفت تلك اللغة الصورية المجبولة بالالغاز كأنما ارادت بها إعجاز الذرية، فلم يرتقِ العلم الى مفتاحها إلا بعد جهود الفي سنة .

ولكن الصين لم تقوَ عليها ثورات الطبيعة والانسان ، فبقيت وحدها واقفـــة بينما كان كل شيء يتداعى من حولها ، كتلك الصخور الوعرة التي لا تزال تلتطم بها امواج البحار منذ بداية الخلق دون ان تزعزعها .

*

لا ريب ان الحضارة الصينية أقدم حضارة على الارض، يرجع تاريخها الى ألفين وخمسمائة سنة قبل المسيح . فكان « فو هي » امبراطورها الحكيم اول فيلسوف في مملكته . ولم تكن الكتابة معروفة لذلك العهد فرسم حكمته في سطور سرية عـــلى ألواح محفوظة حتى اليوم ، وعلّم شعبه العدد والفلك وعوّده احترامَ الأجداد. ثم جاء بعده ياو ، وشون، ويو ، فنظم الاول المواقيت، وسنّ الشرائع ، واخترع كثيرا من الفنون المفيدة. وكان دمث الاخلاق طيب القلب الى حد انـه منع العرش عـلى بنيه لانهم لم يكونوا اهلا للحكم . ورفـع اليه مزارعا بسيطا هو شون الذي اقتفى اثره فاختار خليفة له مزارعا مثله هو « يو » .

ياو ، شون ، يو ، هم الاركان الثلاثة التي قامت عليها الفلسفة الصينية : وضعوا أسسها وقالوا للحكام : الرعيـة ابناؤكم ، وقالوا للرعية : الملك ابوكم .

ومنذ دفع هؤلاء الصينَ في طريقها الى الامام اخذت تتقدم

في معارج الارتقاء يساعدها على ذلك غناها الطبيعي واتساع ملكها ومناعة حماها بما حبتها الطبيعة من حدود تردّ طرف الغزاة وهو حسير، كجبالها الشماء التي تعد أعلى جبال الكرة الارضية، ومنافذها الشاسعة التي يعز اجتيازها على بني الانسان .

وانصرف الشعب الصيني الى انماء تجارته وصناعته . وكان له من نجـــاحه المطرد وثروته الآخذة في الازدياد حافز للاهتمام بالفنون الرفيعة ولا سيما الموسيقى، حتى ان الامبراطورشون جعل لها في حكومته وزارة خاصة. وكان همّ الصينيين متجها الى توفير اسباب الراحة وحياة الخفض والدعة والسكون، فاكتشفوا بسهولة ما قضى الغرب زمانا طويلا قبل الوصول اليه . وقبل المسيح بخمسة عشر قرنا كانوا يعرفون الورق والكتابة ويستعملون البيكار . وكانوا يكرهون الحروب ، وقد عودتهم اسوار الصين الهائلة ان ينامو في جناح آمن فكانوا يحتقرون الاشياء العسكرية ولا يريدون سوى التمتع بنعم السلم ، ولهذا لم يحفظ التاريـــخ ذكراً لرجال الحرب منهم .

وكتب الآداب عندهم تلقن مبادىء العدل وتنص على خلود النفس والثواب والعقاب في عالم آخر . وتأمر كالكتب الهندية بالرحمـــة والشفقة على الحيوان ، واحترام العصافير الصغيرة في أعشاشها ، والاشجار التي تعطي الظل .وتعلّم ان الانسان السعيد هو الذي يرى الخير ويصنع الخير . وما أجمل هـــذا التعريف للسعادة .

والقضاء قديم في الصين ، وهو عادل وصارم معا . وعقاب

الصين قائم على العصا يخضع لها العظيم والحقير ، دون ان يجدوا من ورائها عارا او تحقيرا . فترى القاضي نفسه اذا استحقها يخلع ثيابه ويحني ظهره ويتلقى الضربات ثم يقوم فيرتدي لباسه ويعود الى منصة القضاء دون خجل ولا استحياء . واما الجرم السياسي فيعاقب بالتعذيب الشديد والموت بلا شفقة .

وللشعب الصيني شعر وأدب ولكنه شعر جامد وادب لا يتغير لأن طاعته العمياء وخضوعه للتقاليد قد وضعا الفكر والخيال في دائرة ضيقة لا يعتديانها . على انه من العجب العجاب ان يكون لهذا الشعب فلسفة ، وعلم ، وادب ، في زمن كان العالم فيه غارقا في ظلمات الجهالة ، وان يتولى العقل زمام الاحكام فيه بينما كانت سائر الشعوب خاضعة للقوة . وربما كان من أهم أسباب ذلك الجمود الكتابة الصينية التي يحمل كل حرف منها صورة مرسومة فلا يسهل حفظها . ولهذا لا يزال الصينيون يتكلمون اليوم كما كانوا يتكلمون منذ طفولة العالم بلغة كلها ألغاز ورموز يقضي الذكي منهم ثلثي عمره في تفهمها ، والثلث الباقي في التبحر بها .

وفضلاً عن ذلك فالصيني محكوم عليه بشرائعه ان لا يفارق موطنه ، فحيث ولد يعيش ، وحيث عاش يموت . وكما حرم عليه الخروج من أرضه فقد حرم على الغريب الدخول اليها . فاذا بهذه المملكة الكبيرة كالسجن المحكم الاقفال لا تتسرب اليه اصوات الخارج ولا يؤثر فيه ما يعصف حوله من الزعازع .

وفي منتصف القرن السادس قبل التاريخ المسيحي كانت الصين بلا ريب اعظم بلاد الله حضارة وارقاها مدنية . مملكة

واسعة الاطراف كاملة التنظيم ، مقسومة الى ولايات يديرهـا حكام باسم الامبراطور . وفيها نظام للشرطة وللسلطات جميعاً ، وصناعاتهـا كثيرة كالحرير ، والخزف ، والصباغ ، والطباعة ، والخفر . وزراعتها زاهرة ، وبساتينها خضراء ، وحدائقها كثيرة غناء . ولا يخلو فيها بيت من روضة يقضي الصيني فيها معظم وقته مستسلما الى الراحة واحلام النفس المطمئنة . في تلك الحقبة من الزمن بينما كانت ضفاف الكانج وغابات الهند الازلية تردد صدى تعاليم بوذا كانت الصين تتلقى الحكمة من فم مرشدها وفيلسوفها الاكبر كونفوشيوس .

- ٢ -

لا ريب ان القرن السادس قبل المسيح كان عصراً خصباً من عصور الفلسفة البشرية . ففي الصين كونفوشيوس ، وفي الهند بوذا ، وفي اليونان كان طاليس لا يزال حيا ، وفيثاغور في اوج شهرته ، وسولون في إبان شبابه ، وسقراط على عتبة الدنيا يتمخض به الغد القريب . وقد مر بنا ان الصين كانت لذلك العهد في الذروة من حضارتها ، وكان كونفوشيوس قد بلغ الخامسة والخمسين من عمره بعد ان اكبّ منذ الصغر على درس كتب الاجداد واستخلاص منها تلك المبادىء العملية النافعة للحياة وطبق عليها عاداته فأصبح السيد المطاع يشغل اسمى مناصب الدولة ويتولى ادارة الاشغال العامة والقضاء ، فكان في آن واحد المؤرخ والمشترع والوزير الاول . وقد سبق القول ان الصين كانت منقسمة الى دويلات فكان من نجاح دولة « لو » وازدهارهـا ما حرك الحسد في قلوب

الجيران ، فحاول ملك «تسي» افساد ملكها بالهدايا فأرسل اليه ثماني فتاة من اجمل حظاياه وجوقا من المغنين وجيشا من الطهـــاة البارعين ومئة وعشرين جواداً أصيلا فاستسلم هذا الاخير الى اللهو والملذات غير عابيء بنصائح وزيره، ضارباً بتعاليمه عرض الحائط ، فـــلم يبق لكونفوشيوس سوى الاعتزال ، فانسحب من مملكته مودعاً آماله فيها وابتعد عنهـا وهو يتألم . وبما انه لم يكن يفكر بغير سعادة الشعب فقد كان الفقر اسرع شيء اليه . ورأى الناس حينئذ ، ويا له من مشهد محزن ، هذا الرجل الحكيم شريدا طريدا لا مأوى له ولا قوت ولا راحة ، معرّضاً لأهانة الكبراء واحتقار الشعب الذي قلما يحفظ الجميـــل . ورفع يوما احد الامراء سيفه عليه فلم يطأطىء رأسه بل قال : اذا كانت السماء ترعاني فما يهمني بغض الرجل القوي . فكأنه قضي على كل من يتطوع لخدمة هذه الانسانية ان يتجرع كأس الالام حتى الثمالة كأنما هو يكفّر بهذا العذاب عما أوتيه من المواهب الساميـة لاداء رسالته الالهية على الارض .

ومات كونفوشيوس في الثانية والسبعين فكانت حياتـــه ثلاثة ادوار : الدور الاول درس واستعداد ، والثاني حكم وارشاد ، والثالث عزلة واستشهاد . على ان الموت كان اعظم منصف له . وكما يقع للرجال العظام الذين تُنكَرُ اقدارهم وهم في الحياة فقد عاد نجمه الى الاشراق بعد افوله فأقيمت له الهياكل وشيدت باسمه المدارس ، فكان الامير او الحاكم اذا مر من امام عتبتها يترجل احتراماً . وصار الانتماء اليـــه اكبر شرف يحمله

الحكماء والقضاة وارباب القلم والصولجان، واصبحت اعظم مكافأة يحلم بها المتفوقون هي ان يلقبوا بتلاميذ كونفوشيوس . وعادت الكرامة لذويه ، واصبح الشرف ارثاً في ذريته ، وكتب الامبراطور «يون» براءة يقول فيها: «اني احترم كونفوشيوس ، فالملوك هم سادة الشعب وهو سيد الملوك . »

والحق انه اذا كانت قيمة الانسان وقوة تعاليمه على قدر ما يترك من التأثير في الناس فقد جاز لنا ان نقول مع الصينيين ان كونفوشيوس اعظم مهذب للجنس البشري انتجته العصور . اما تعاليمه ففي الغاية من البساطة . وهي عملية مبنية على طبيعة الانسان، تتناول كل حالات الحياة والصلات الاجتماعية، وتتلخص باستقامة القلب وحب الانسان قريبه كنفسه . ليس فيها تحليق في الفكر ولا شيء من البطولة ولكن كثير من الحكمة ، فهي ادب اكثر مما هي فلسفة . ادب يدرب العواطف جاعلاً من البرّ بالوالدين اساس الطاعة التي تمتد سلطتها الى ابعد من العائلة ، الى الامبراطور والحكومة والامة . والغاية القصوى التي تهدف اليها تعاليمه هي الكمال ، الكمال الفردي اولاً ، وكمال المجتمع بعد ذلك . فيبدأ الانسان باصلاح ذاته وتحسين نفسه ثم ينتهي الى اصلاح الآخرين وتحسينهم . ولا يستطيع الانسان اصلاح غيره قبل اصلاح نفسه ، وكلما تقدم المرء في الوجاهة وعلو الكلمة في قومه كانت واجباته اوسع واعظم في السعي نحو هذا الكمال . وقد علمه درس التاريخ والقلب البشري ان السلطة تفسد على الانسان نفسه فينتفخ كبراً ويزيد صلفاً وعناداً فكان لا يفتــأ يذكّر

الحكام بواجباتهم ملقياً عليهم كل تبعة خيراً كانت ام شراً ، غنىً ام فقراً .

هذه الصبغة المادية لتعاليمه هي التي جعلتها طويلة العمر لانها بسيطة خالية من التعقيد ، قريبة التناول من الاذهان . لقد فهم كونفوشيوس روح معاصريه حق الفهم فكان مادياً في شعب لا يعرف غير فوائد المادة ، شيوعياً بين قوم قوتهم قائمة على الاشتراك ، مستبداً في مملكة تتمتع باحسن نظام للشرطة . وساجتزيء هنا بايراد بعض الامثلة من حكمه فهي تعطينا صورة جلية عن جمال تعاليمه :

قال : ثلاثة على الحكيم احترامها : شرائع الطبيعة ، وعظماء الرجال ، واهل الصلاح .

وقال : اوصي الشعب باحترام الشرائع قبل درس العلوم .

وقال : خمس قواعد لحكم العالم : العدالة التي تربط الحاكم بالمحكوم ، والحب الذي يربط الآباء بالبنين ، والعلاقة بين الزوجين ، وخضوع الصغير للكبير ، والصدق في الصداقة . كونوا ايها الحكام مثال الاستقامة والعدل فلا يتجرأ احد على العصيان او التذمر . ايها الحاكم ان اردت ان تدير ملكك فجرّب ذلك اولاً في داخل بيتك فالعائلة هي المملكة الصغيرة .

وقال ايضاً : الفقير الذي لا يتزلف الى الناس والغني الذي لا يصعّر خده خيلاء يستحقان الثناء ، ولكني افضل عليهما الفقير الذي يرى نفسه سعيداً في فقره والغني الذي يعرف ان عليه واجبات نحو غيره . الشجاعة النادرة ان لا يخجل الانسان من

لباسه الزري واظهاره البالية امام صديق يلبس الخزّ والديباج . التقوى الحقيقية ان تحب الناس جميعاً والحكمةُ ان تفهمهم . تعلم ان تعيش مكرّماً لتموت مكرماً . يمكن التغلب على قائد يحميه جيش كامل ، ولا يمكن سلخ الحرية عن اضعف الناس .

وقال ايضاً : اربعة شروط للرجل الكامل واراني مقصراً فيها ، اولاً : لا استطيع ان اطيع ابي كما يطيعني اولادي ، ثانياً : لا اخدم سيدي كما اريد ان يخدمني عبدي ، ثالثاً : لا احترم من هو اكبر مني سناً كما اريد ان يحترمني من هو اصغر مني ، رابعاً : لا اؤدي لصاحبي الواجب الذي اريد ان يؤديه لي .

– اذا عرض لنظرك شيء غير شريف فلا تره ، او لأذنيك فلا تسمعه ، او لفمك فلا تنطق به .

– من لي بانسان يكون الرقيب لنفسه والشاهد عليها والخصم والحكم معاً فيعترف بخطاه ويجلس الى محكمة ضميره ويرسم لنفسه عقابها .

– ليكن سلوكك كما لو كانت عشر من الاعين تحدق فيك وعشر من الايدي تشير اليك .

واخيراً هذه الحكمة البالغة التي اوصى بها السيد المسيح : قابل الاساءة بالاحسان . لا تفعل بالناس ما لا تريد ان يفعله الناس بك . واعمل للآخرين ما تريد ان يعمله الآخرون لك .

أبيقور

دين اللذة

●

لم أجد رجلا اثار من الضجة حوله مثل الذي أثاره أبيقور. فأحبه فريق وأبغضه فريق وانهال عليه قوم بالمديح وقوم بالذم. ورأى فيه بعضهم نعمة للبشر وبعضهم الآخر ويلا عليهم. فكان في آن واحد ملكا كريما وشيطانا رجيما.

ونحن اليوم اذا اردنا ان نصدق اولئك او هؤلاء ونحكم له أو عليه فليس لنا سوى الرجوع الى ما كتب او كتب عنه لنتبين الحقيقة من اقواله واعماله. ويقول بعض مؤرخيه انه صنف نحوا من ثلاثمائة كتاب لم يصل الى ايدينا منها سوى رسائل ثلاث، الواحدة في الاجرام السماوية، والثانية في الطبيعة، والثالثة في سيرة الحياة، مع وصيته الاخيرة، ومقتطفات من خطرات افكاره. ومن الذين كتبوا عنه سنيك وبلوتارك ولكن اهم مؤرخيه الشاعر لوكرس الذي افاض في شرح فلسفته فجاء كتابه من اجمل اثار الادب اللاتيني وسيبقى المرجع الوحيد لدراستها.

*

اراد ابيقور الوصول بالانسان الى السعادة على الارض فلم ير بدآ من ازالة الاوهام العالقة به، وخط ادباً جديداً له في الحياة،

فجاءت فلسفته مادية بحتة . رأى الشقاء المخيم على البشر وحياتهم الملأى بالانين والشكوى فعزا ذلك الى سببين : السبب الاول الخوف من الآلهة لأنهم كانوا يعتقدون ان هذه الالهة تراقبهم من سمائها وتعد عليهم حركاتهم وخطواتهم وتحاسبهم على نياتهم وهفواتهم، فشغلوا بها عن العمل لما فيه خيرهم، وتركوا كل شيء الا التفكير الدائم بالكهان ، وما يتنبأون عنه وما يأمرون به ، وقد يكون الضرر البليغ فيما يأمرون ، كما جرى لاغاممنون اذ صدقهم فضحى بابنته افيجيني. والسبب الثاني الخوف من الموت ، فهو الكأس الدائرة على الورى وكل واحد يشعر بالموت يدنو منه يوما بعد يوم حتى صار شبحه ملازماً للناس يتبعهم في رواحهم وغدوهم وقيامهم وقعودهم فوجدوا أنفسهم على شفير الهاوية واستحكم منهم الدوار . وما دام هذان الخوفان مسيطرين على النفوس فالتعاسة لا مناص منها . وهذا ما اراد ابيقور محاربته بتنوير الاذهان بدروس الطبيعة، فأظهر اولا انه لا داعي للخوف من الالهة لانها مشغولة عنا لا يهمها معاقبة المجرمين او مكافأة المحسنين ، وليست في حاجة لان نستجلب رضاها او نثير غضبها .
وان الظواهر الجوية التي تهلع لها قلوبنا كالصواعق والزلازل والكسوف والخسوف والانذارات التي تدعي الكهنة انها تتلقاها فتؤولها كما تشاء لا علاقة لها بالغيب ويمكن تعليلها باسباب طبيعية. وقدم مثلا بسيطا على ذلك وهو ان الصاعقة التي يزعمون ان جوبتر جبار الاولمب يرسلها قصاصاً للمجرمين قلما تصيب احداً من هؤلاء ، بل هي لا تقع الا في القفر او على الهياكل والتماثيل

ومعابد الالهة نفسها . أفليس هـــذا دليلا ناصعاً على عدم اهتمام الالهة بنا ؟ وهنـا يخوض ابيقور للتعليل عن وجود الكائنات في بحث فلسفي لا مكان له في هذه الاسطر ، راجعاً في كل شيء الى رأي ديمو قريطس في الجواهر الفردة مفسراً تكون العوالم بتصادم هذه الجواهر ، تاركا بين هذه العوالم خلاء جعله مقراً للالهة . ويشرح وجود الانسان علـى الارض بالتولد الذاتي ثم يبين ارتقاءه من ظلمة الكهوف والعزلة والجهل الى ذروته الحاضرة ليقول ان هذه المدنية صنع يديه فلا شأن للالهة بهـا . نعم على الانسان ان يؤمن بالالهة ويحترمها ويقتدي بها في حياتها الهادئـة السلمية ، ولكن من العبث والتضليل ان يصلي ويضحي لهـــا ويغريها بالهدايا ويشغل افكاره بهـا ابدا كأنها قاعدة له كلّ مرصد . اما الموت فلا داعي للخوف منه لان الجسم ينحلّ به روحاً وبدناً فتذهب التذكارات والهموم والتأسفات ولا يبقى شيء يهدد به . ولا صحة لما يزعمون من ان الروح موجودة قبل الجسد وباقيـــة بعده . فاذا كانت موجودة قبل الجسد فمتى دخلته ؟ أقبل الولادة ام قبل التكوّن في البطن ؟ تصوروا اذن هـذه الارواح المزدحمة في الغيب تنتظر كلها ساعة الحب لتهجم على اجسادها وتدخلها . واذا كانت باقية بعده فأين تذهب ؟ إلى انسان وما رأينا احداً يحفظ في حياتـــه تذكار حياة سابقـــة ، ام الى حيوان ولا يعقل ان يكون في الخروف روح أسد ؟

واذا عرفنا ان الروح فانية مع الجسد بدا لنا الموت كأنـــه راحة لا عناء ، ونسيان لا تذكار ، فـلا سبيل الى الخوف منه أو

القلق بسببه . وهكذا يزيل العلم بالطبيعة الخوف المسيطر على البشر من الالهة ومن الموت ، ومتى تم ذلك وتخلص الانسان من ربقة هذا الاعتقاد فقد تم نضجه وصار اهلا للحكمة .

ما هي هذه الحكمة ؟هي اجتناب الالم والبحث عن السعادة . تلك هي في نظر ابيقور غاية الانسان على الارض ،وهو يعتقد ان اكبر عامل في السعادة هو اللذة ، لا يعني بذلك الاستسلام بلا حساب الى الملذات كما يقول الشاعر :

لا تقف في وجه لذاتك مكتوف اليدين

انت لا تأتي الى دنياك هــذي مرتين

بل اللذة المعتدلة بالحيــاة المطابقة لمطالب الطبيعة كما يعيش سائر الحيوان والنبات،ويمكن حصرها في قواعد اربع :

اولاً – خذ اللذة التي لا يعقبها ادنى تعب .

ثانياً – اهرب من التعب الذي لا يعقبه ادنى لذة .

ثالثاً – اهرب من اللذة التي تحرمك لذة اخرى اعظم منها .

رابعاً – اقبل بالتعب الذي ينجيك من تعب اكبر، ويعطيك لذة اوفر .

وعليه فهو يميز اولاً بين الملذات الطبيعية والضرورية كالشرب عند الظمأ والاكل عند الجوع . – وهـذا ما يجب الاخذ به – وثانياً ، الملذات الطبيعية غير الضرورية كالتفنن في الاكل وارضاء الشهوات – وهذا ما يجب الاعتدال فيه .وثالثاً ، الملذات التي هي غير طبيعية وغير ضرورية كالسكر والافراط في أكل اللحوم وكل ما يدفع اليه الطمع والبخل من رغبات لا حد لها فلا يجمد

الانسان واحدة منها حتى تستيقظ الثانية ، وهكذا يزلق المرء من شهوة الى شهوة ،ومن وهم الى وهم ، ومن خيبة الى خيبة ، ومن اضطراب الى اضطراب. فهذه الملذات غير الطبيعية ولا الضرورية يجب الاقلاع عنها .

تلك هي فلسفة ابيقور. لقد اساء الناس فهمها فرموا صاحبها بكل شائنة وانزلوا عليه اللعنات وجعلوا منه منافقا وفاسقا ونهما حتى ادعى تموقراط احد تلاميذه انه كان يتقيأ ما يأكله مرتين في النهار ، والى يومنا هذا لا يزال اسمه رمزاً لحب الذات وحب المتعة فيقولون« هذا ابيقور » لكل مسترسل في شهواته لا يهتم إلا بذاته مع ان اتباعه ومريديه يمجدونه كاله ويمدحون كرم طباعه وبساطة عيشته ويؤكدون ان غذاءه كان من الخبز المبلول بالماء، وكتابه الاخير الى تلميذه « ايدومنه » دليل على تعففه وتقشفه . فقد مات في السبعين بعد عذاب ايام بداء المثانة وكتب قبل موته يقول : « اكتب لك هذا في اليوم الاخير والسعيد من حياتي. ان آلامي لا تطاق ولكن يعزيني فيها الذكريات التي أستمدها مما علمتّ وصنفت . »

لقد كان ابيقور اكبر معلم للبشر بدرسه اوفق الشروط للسعادة ، فقد رأى أحسن من كل انسان ان هذه السعادة لا علاقة لها بالمال والشهرة والمركز الاجتماعي . ولا ريب ان سقراط لم يجهل هذه الحقائق وكذلك الرواقيون اتباع زينون ، ولكن ابيقور خلع عليها حلة خضراء من سحر لسانه وقوة بيانه حتى اصبح المرجعَ فيها لكل من قال حكمة في العالم . ومن الغريب انها لم

تدرك كما يجب ولم يكن عدد الذين استفادوا منها أكثر مما هو .

كلا لم يكن ادب ابيقور ليجعل من الناس قطيعاً من الخنازير كما ادعى اعداؤه . ولو ان الانسانية عملت بما علّم لحققت المثل الاعلى وكان لها مجتمع سلمي يبحث فيه كل فرد عن سعادته في الحياة البسيطة والاعتدال والرضى بلذات الفكر واحترام الاخرين فلم نصل الى ما نحن عليه من فتنة مال ، وخيبة آمال .

تيمور الاعرج

دين البطش

•

كان تيمورلنك من اعظم ملوك المغول شأنا وأوسعهم سلطانا وأشدهم طغيانا ، يمت بنسب بعيد الى جنكيز خان على ما يقال وبينهما مئة وسبعون عاماً . فقد ظهر جنكيز في منتصف القرن الثاني عشر وظهر تيمور في اوائل القرن الرابع عشر . وتخال العهدين ظهور هولاكو الذي اشتهر بتخريب بغداد وقتل المستعصم واضعاً السيف في دار السلام اربعين يوما محرقاً دورها ، نابشا قبورها ، بانيا بكتب العلماء مجبولة بالطين اصطبلات خيوله وجاعلا منها جسورا على نهر دجلة للعبور عليها .

جاء في دائرة المعارف عن القرماني : كان تيمور رجلا ذا قامة شاهقة ، كأنه من بقايا العمالقة ، عظيم الجبهة والراس ، شديد القوة والباس ، ابيض اللون الى احمرار ، عظيم الاطراف ، عريض الاكتاف ، مستكمل البنية ، مسترسل اللحية ، اعرج اليمنيين ، وعيناه كشمعتين ، جهير الصوت ، لا يهاب الموت . وكان من ابهته وعظمته ان ملوك الاطراف وسلاطين الاكناف اذا قدموا عليه وتوجهوا بالهدايا اليه كانوا يجلسون على اعتاب العبودية والخدمة نحواً من بعد البصر من سرادقاته . واذا أراد

منهم واحداً ارسل احد خدمه ينادي باسمه فينهض في الحال .

وقد اختلفت الاقوال في نشأته وكثرت حولها الاساطير فقيل انه لما ولد كانت كفاه ، مملوءتين دما فقال بعضهم يكون شرطياً ، وقال بعضهم ينشأ لصاً ، وقال بعضهم قصّابا سفاكا . وقيل مثل ذلك في جنكيز خان . والسبب في تسميته بالاعرج انه سرق في بعض الليالي غنمة فشعر به الراعي فضربه بسهمين اصاب باحدهما فخذه وبالاخر كتفه فأبطل كلتيهما فازداد كسرا على فقره ، ولؤماً على شره .

وكان جده حاكماً على كرش فاغتصبت منه ، وعمر تيمور ثلاث سنوات ،فقضى طفولته في الفاقة والحرمان . ولما بلغ اشده جمـــع من البادية والصحراء والغاب رجالا اقسموا له اليمين ان يساعدوه على استرجاع ملكه . وكان هو ورفاقه يسرقون ما وراء النهر فشعر بهم السلطان حسين صاحب هراة وظفر بهم فضربهم ، وامر بصلب تيمور . وكان للسلطان ولد يقال له غياث الدين ،فشفع فيه واستوهبه من ابيه فقال له ابوه: هذا مادة فساد ، وان بقي ليهلكن العباد . فقال غياث الدين : وما عسى ان يصدر من نصف ادمي ، وقد اصيب بالدواهي ؟ فوهبه له فقربه منه وزوّجه شقيقته . ثم انـه غاضبها بعض الايام فقتلها فلم يبق له إلا الخروج والتمرد ، الى ان كان من أمره ما كان حتى استصفى ممالك ما وراء النهر ، واسترقّ العباد ، وصافى المغول ، وتزوج بنت ملكهم قمر الدين .ثم ظفر بغياث الدين فقتله، ووضع السيف في اهل سجستان ، واستخلص ممالك العجم . ثم زحف الى الهنـد

فاقتحم دلهي ، وأمر بقتل مئة ألف من السكان ، واحرق البيوت والهياكل . ثم انتقل الى الشام والعراق فاكتسحها وبلغ بلاد أرمينيا وملك بني عثمان ، وكانت له تلك الوقائع المشهورة .

واتخذ سمرقند قاعدة لملكه وبنى فيهـا الجوامع ، وجملها بالحدائق الغنّاء ، واحاطها بالاسوار ، ولقب نفسه الخان الاكبر مردّداً قول أحد شعرائه : « يجب ان لا يكون على الارض سوى سيد واحد ، كما انه لا يوجد في السماء غير إله واحد . »

وكان يحسن الفارسية والتركية والمغولية وله المام بالادب وغيرة على الدين الاسلامي ، ولهذا كان يعفو في فتوحاته عن رجال القضاء والشرع والعلم ويهتم ببناء الجوامع . على ان هذا لم يمنعه من التخريب مضيفا الى فظائعه بذخاً غريبا .

من هذه الفظائع انه بعد ذبحه سكان اصفهان امر كل جندي ان يأتيه بعدد من الرؤوس المقطوعة . وكان الجنود قد تعبوا من التقتيل فصاروا يشترون الرؤوس ويقدمونهـا له حتى بلغ عددها سبعة آلاف . وفي « الانجاز » حمل الناس على الاسلام ، ومن أبى عذبه ، ومن هرب الى الكهوف أضرم فيها النار واحرقه . وفي هراة ، بنى من الجماجم ابراجا فعدوا منها (٧٠) ألف جمجمة ، وفعل مثل ذلك في تكريت وحلب وبغـداد . وعندما حاصر سيواس بعث اهلها نحوا من الف ولد يحملون نُسخا من القرآن وهم يضجون « الله ! الله ! » راجين بعملهم هذا اكتساب عطفه ، فقال : ما هذا الثغاء الذي اسمعه ؟ وامر ان تؤخذ الكتب منهم وان تدوسهم الخيل فهلكوا جميعاً . ولما دخل دمشق أظهر التشيّع

واوقع على اهلها جريرة كونهم اعانوا بني أمية وهم سنة واحرق المدينة عقاباً لهم . وفي بغداد اباح النهب ثمانية ايام ثم قتل اهلها وبنى من رؤوسهم (١٢٠) برجا ، ثم خرب البلد الا المستشفيات والمدارس والجوامع . وفي احدى مدن اسيا الصغرى ربط رؤوس الفرسان الارمن بارجلهم والقاهم في الحفر ودفنهم احياء، وتغلب على بايزيد فوضعه في قفص من حديد حتى مات .

وكان يتسلى بمجادلة علماء السنة في حلب وتخويفهم . وقد ألقى عليهم يوما هذا السؤال : من هم الشهداء حقيقة ؟ من قُتلوا من جنودي ام من اعدائي ؟ فقال احدهم : من قاتل في سبيل الله فهو الشهيد. وقال تيمور : أنا اعرج وضعيف، وقد فتحت ايران وطوران والهند . فأجابه المفتي : احمد الله ولا تقتل احدا فقال : والله ما قتلت أحداً بارادتي ، وما كنت ابدا البادىء بالعدوان ، وانتم علة مصائبكم . بهذه الاحاديث كان يتلهى مع العلماء ، بينما كان رجاله يقيمون من الجماجم اهراما ....

اما بذخه الغريب فيمكننا ان نأخذ صورة عنه فيما صنعه في سمرقند بعد رجوعه اليها ليستريح من وعثاء السفر والحروب، وهو في الستين من العمر . فقد بنى قطراً من المرمر المزدان بالوان الخزف والفسيفساء وجعل فيه مستقيات ينبعث منها الماء ممداً في السماء . ونصب مئتي خيمة من الحرير المقصب والمخمل المذهب لسكناه واقام ملاعب للخيل وامكنة لأجواق الموسيقى . ثم أولم وليمة فخمة حضرها بنوه والملكات والحكام والعظماء وسفراء الدول كالصين وروسيا

واليونان ومصر واسبانيا . وكانت الهنود ترقص على الحبـال ، وارباب الفنون والصناعات الذين كان يستقدمهم من جميع البلاد التي غزاها يتبارون في اظهار مهارتهم ، فالفراؤون يلبسون جلود الدببة والنمرة والسباع ، والفراشون يعملون من امراس الكتان جمالاً تتحرك ومن الاقطان عصافير ومنائر ، والسراجون يصنعون الهوادج على الجمال ، وفي كل هودج فتاة تفتن الانظار ، وصانعو الحصر يرسمون بالخط الكوفي سطوراً مؤلفة من القضبان . وكانت الخمور تسكب في أكواب الذهب واللحوم تشوى على الاشجار المقطوعة من الغاب والموائد مبسوطة على مدى النظر وعليها كل ما راق وطاب . في ذلـــك اليوم زوّج ستة من احفاده فكانوا يبدّلون ثيابهم تسع مرات ، وكلما بدّلوها تركوا ما عليها من الحلي والجواهر لأتباعهم . وكان رجاله ينثرون على الضيوف بين الحين والحين قطعاً من المرجان والياقوت والعقيق والفيروز والذهب والفضة بينما الشعراء ينشدون قصائد المديح بالعيد .

ولم يكن تيمور ينتهي من بذخه الا ليعود الى غزوه وتقطيعه . فلما انقضى هـذا المهرجان العظيم التفت الى من حوله وقال : ان انتصاراتي لم تتم دون إراقة دماء ولهـذا عزمت على التكفير عن ذلك بمحاربة عباد الاصنام في الصين . فليكن الجيش الذي ساعدني على ارتكاب القتل عوني في التكفير عنه لنقيم الجوامع على انقاض الهياكل . وخرج من سمرقند في مئتي الف مقاتل ، ولكن البرد والجليد افنيا الكثير من جنوده واصابته الحمى في أترار فقضى نحبه . هذا هو تيمور الاعرج الذي يعدّ اكبر الفاتحين منذ الاسكندر

الى اليوم . والفرق بينه وبين جنكيز خان انـــه كان ذا علم ومعرفة وله اطلاع على اداب العرب والفرس، بينما كان جنكيز امياً لا يقرأ ولا يكتب ولا يحسب . ولكن الاثنين أمعنا في التخريب . نعم ان تيمور كان مسلماً فأبقى على الجوامع وشاد كثيرا منها ، غير ان جنكيز المجوسي لم يكن يفرق بين الاديان فادخل في بلاطه الاكفاء بـــلا نظر الى المذهب ووضع لأمته شرائع قيمة . وعلى كلٍّ فقد كان الطاغيتان اكبر نقمة نزلت على البلاد الشرقية ، والمدنية الاسلامية .

روسكين

دين الجمال

•

كان والد روسكين تاجر خمور ولكنه كان يتعشق الطبيعة ، ويحب الادب والتصوير ،ويميل الى الاسفار. وقد ترك لابنه ثروة واسعة ، مع هذا الغرام الفطري بالطبيعة والجمال . على ان الجمال لم يكن يتجلى له بادي، ذي بدء الا من خلال الضباب الضارب قبابه في كل ناحية من لندن . ولما خرج منها الى الارباض اخذ يتعرف الى جمال الاشياء فيما كانت تقع عليه عيناه من المروج الخضراء وبساتين الكرز والتوت ومناظر تلك الثمار السحرية المتعددة الالوان ، وعناقيد اللآلىء المخبأة بين الاوراق،فكان الفتى روسكين يرى فيها فردوسه الارضي ، ويقضي عندها الساعات الطوال سابحاً في بحر الخيال بين التأملات والاحلام .

وكانت امه من المتزمتات لا تني في اداء مهمتها كزوج وكأم ، حتى رضيت ان ترافقه الى اوكسفورد الغريبة عنها لتكون على مقربة منه تسهر عليه و'تقصي عنه الألم ما امكن ، والاخطار ما استطاعت ، وإن أدّى ذلك الى إضعاف بنيته او سد ابواب اللباقة والمهارة في وجهه . وكانت 'تعنى بتعليمه العهدين القديم والجديد ، فترعرع في النعمة والترف لا يعرف ما

هو الهم ، ولا يفهم معنى للحسد او الطمع ، ولا تقرع اذنيه كلمة لوم او جدل ، فكان السلام والطاعة والايمان الاطار الذي يكتنف حياته . فنما الذوق فيه بعيداً عن المؤثرات الخارجية . وكان ابوه يقوده في ساعات الفراغ الى الانقاض والمعابد والقصور التي يمر بها في اسفاره العديدة فيملأ منه السمع والبصر بالاناشيد والاشعار والصور . فزار أسكتلندة في الخامسة من عمره ، وباريس في السادسة ، وشهد تتويج شارل العاشر ، ووقف في ساحة واترلو ، وعاد الى انكلترا ، وهو يكتب ذكريات ويخط رسوماً ، فيصف المدارس والكنائس ، وموسيقى او كسفورد وقبر شكسبير ، ومعملاً للدبابيس في برمنكهام ، وينظم الشعر في العاشرة ، ويجمع الحجارة النادرة في الاودية ، ويراقب الانوار ، ويقيس الابعاد . وكل ما كان يستشفه بفكره الثاقب كان يتعشقه بقلب خلي بكر ظمآن . وكان يهتم بالاشياء اكثر من اهتمامه بالاحياء ، ولا سيما ما اتصل منها بالجمال ، وفيها ما فيها من اسباب اللذة او الالم ، فتراه مثلاً مشغولاً بالصور المعلقة على جدران البيت الذي يزوره عن اهل البيت انفسهم .

واول ما تعرّف الى الجمال كان عندما رأى في الافق غيوماً صافية كالبلور وقد صبغتها شمس المساء بلونها الوردي ، فما كان الفردوس المفقود باجمل منها في عينه !

واصبحت تأملاته في الطبيعة لا للتسلية بل نوعاً من دعوة قدسية نحو المثل الاعلى . فصار تاريخ حياته منذ ذلك الحين تاريخ اجتماعه الى الطبيعة في سفراته المتعددة كل عام والتي لم يكن

يأتيها حباً بالاستجمام فحسب بل كان يذهب اليها كما يذهب الى الله الذي يفتح للشباب ابواب الفرح !

ولم يكن يستطيع وصفها وتعريفها فكان يقول : « اي نوع من الشعور البشري هذا الاحساس الذي يُحَبّ فيه الحجرُ للحجر والغيم للغيم ؟ ان القرد يحب القرد لانه قرد و تُحَبّ شجرة الجوز لثمرها ، ولكن الحجر لا يُحَبّ لانه حجر . اما انا فقد كانت لي الحجارة خبزاً » .

ولكي يرى هذه الحجارة عن كثب كان يصرف الاشهر الطوال في سويسرا وايطاليا . واحب ان يقيم في « شافونكين » ، الا ان تزاحم السياح منعه ، ففكر في شراء قمة « برازون » ولكن الفلاحين تعجبوا كيف تشرى مثل هذه الارض الصخرية القاحلة فظنوا ان هناك كنزاً وما زالوا عليه حتى ابعدوه .

وما كاد يرفع عينيه عن كتبه حتى وقعتا على فتاة قلبه ، وعمره ١٧ سنة . وكانت اسبانية المولد ، باريسية التربية ، كاثوليكية المذهب ، فلم يرق لامه البروتستانتية هذا الحب وما زالت به حتى حملته على نسيانها مستعينة بالاسفار بين فرنسا وروما وجبال الألب .

وكان حبه للطبيعة ككل حب اي مزيجاً من الفرح والكآبة واللذة والألم ، فاذا مرّ يوما بمكان تبدّل العهد به فرآه على غير ما عرفه من قبل لوجود ميناء جديدة مثلا او سكة حديد أو أبنية لتنشيط السياحة ، شعر بجرح في فؤاده كأنما هي حبيبته قد اهينت وصاح بمواطنيه : « إنكم احتقرتم الطبيعة وكل ما تثير فينا

مناظرها من نبيل الشعور . ان الثوار في فرنسا جعلوا الكنائس حرائس للخيل وانتم حولتم الى ميادين سباق كلّ معابد الارض اي الجبال التي يمكن فيهـــا عبادة الله باحسن ما يُعبد ، واقصى امانيكم ان تمروا في السكة الحديدية من امام هذه المعابد وتأكلوا على مذابحها .»

هذا الاغراق في حب الطبيعة كان يلهيه عن كل ما حوله ، وكثيرا ما بقي اياما يجهل الجديد من الاحداث في بلاده ، وهكذا سقطت الخرطوم وقتل غوردون باشا ولم يعرف بهذا ولا ذاك .

وتزوج سنة ١٨٤٨ ثم طلق زوجته بعد ست سنوات ولم تخبُ نار الحماسة فيه يوما ، ولا تحوّل نظره في الافاق المشرعة التي علِق بها فؤاده .

☆

هـذا الرجل السابح في الخيال كان في الوقت عينه رجل عمل ، وبذلك يختلف عن غـــيره من النقاد والشعراء الذين يكتفون بالوصف والغزل دون ان يفكروا بالاصلاح العملي . فكان كلما ارسل فكرة او اخرج كتـــابا ينزل بنفسه الى المعركة ليرى ما صارت اليه فكرته وليدافع عنهـا . وقد نادى بتربية الذوق وتنمية روح الفن في الجماعات فلم يُسمع نداؤه فقدم نفسه لاعطاء دروس ليلية في الرسم مدة أربع سنوات وانشأ بماله متحفا للفن على رابية تطل عـلى المروج الخضراء ، ثم عُين استاذا في اوكسفورد فأراد ان يقرن العلم بالعمل فأقام فيها متحفا ووهب المدرسة مالا وتطوع طوال ثلاث عشرة سنة لعبادة الجمال والتبشير به .

ولما ادخلوا في التدريس علم التشريح استقال لان التشريح في نظره بشاعة، فضلاً عن قلة فائدته، بدليل ان كثيراً من العلماء كانوا في غنى عنه، وان النحاتين اليونان كانوا يجهلون التشريح .

ولكن ما الفائدة من المجامع العلمية وما يقدّم فيها من امثلة للجمال ما دام العالم مملوءاً بالبشاعة، وما دام رجال القرى يتركون الاعمال التي تقوّي عضلات الجسم ويتزاحمون في المدن لخدمة الآلة وقد اصبحوا مثلها في ايدي رؤسائهم ؟ ما الفائدة من المتاحف ما دامت اجمل مناظر الطبيعة تتوارى خلف البنايات الحديثة والمصانع التي تخنق خضرة الدمن وتسوّد بالدخان وجه السماء ؟ ان دخان المعامل كالبرَص يأكل المباني ويجعل المدن ويفسد المناظر. البلد الغني بلد بشع، والالة تحط من مقام الانسان. هو يريد ان تكون اراضي انكلترا جميلة هادئة لا ادوات بخار ولا سكك حديد ولا اناس لا ارادة لهم ولا تفكير. هو لا يطلب الحرية بل المساواة في الخضوع للشرائع والقوانين، واذا احتيج الى التنقل من مكان الى آخر فليكن ذلك براحة وامان دون التعرض لاخطار السرعة وغير ذلك . هو يطلب كثيراً من الازهار وكثيراً من الشعر والموسيقى .

حُلم من الاحلام ساوره ايام قامت ثورة الكومون في فرنسا، واراد ان يحقق ما بشّر به فجاء باللآلىء للمتاحف، وبالخبز للاكواخ، ودفعه حبه للزراعة الى منح بعض اراضيه للشيوعيين ليجربوا اراءهم في استثمارها على شرط ان يحتفظوا بآرائه فيما يختص بجمال الاشياء، غير ان التجربة لم تنجح، ولم

تسفر الا عن خلق بعض المقاهي واندية اللهو .

لقد اراد هـذا المجدّد الرجعي ان يعود بعصره القهقري بترك الالة والبخار واعتماد اليد والمغزل وَنفَس الانسان الحي، فعمّ هذا العمل بين النساء ، واصبح من العادات السائدة ان يُهدى للعروس نسيج روسكين ، واستغني عن الالة اينما امكن ان يقوم العمل اليدوي مقامها تمرينا وتقوية للعضلات. ولم يكن كبعض القسس الذين يعظون الفقراء ويتنعمون بمآكل الاغنياء . بل اجرى على نفسه ما سنّه من الخضوع لشرائع الجمال، وقام بتجفيف الاراضي على ضفاف بحيرة كونيستون ، غير آبه بالنفقات ليلهي الفلاحين عن المدينة . وبنى جسرا صغيرا على البحيرة بمعونة بعض تلامذته ، وتعلم النجارة والدهان. فهو من هذا القبيل يشبه تولستوي الذي قال عنه انه من اعظم رجال العصر .

وانشأ في البرية مكتبة جامعة كان يحمل اليها الكتب على ظهور البغال احتجاجاً على المدينة وسكك الحديد. وكانت بعض العائلات تقوم بترتيب هذه الكتب وارسالها لمن يريد مطالعتها خدمة له واعجاباً بـه . فـلا ناشر ولا وسيط بل هي الايدي نفسها التي كانت تنظم الكتب كانت تنسخها وتكتب المقالات عن مذهب المعلم وتحفر له الرسوم. وكان يقول: في وسعي ان اربح من كتبي ما شئت اذا رشوت النقاد في المجلات والجرائد، ودفعت نصف ما اربح للمكاتب ولمن يلصق الاعلانات ، وسايرت اسقف بتربوروف .

وقد افلح في مشروعـه . فان كتابا من كتبه « المصابيح

السبعة للبناء » ربح ٧٥ ألف فرنك، وكتابا آخر عنوانه « السمسم والزنابق » يباع منه كل عام ٣ آلاف نسخة .

وكان المتحف الوطني لسنة ١٨٤٥ فقيرا خاليا من التحف الثمينة فرفع صوته مطالباً بالعناية به ، فأغناه بلواح من أشهر الفنانين بما لا تجده حتى في اللوفر . ولما ظهر كتابه « حجارة فينيسيا » وكتابه الاخر « المصابيح السبعة » تغير البناء الانكليزي واكتسب مسحة جديدة جميلة . وفي سنة ١٨٥٤ شهر الحرب على « سراي البلور » ، منتقداً هذا البناء القائم على الحديد والزجاج وما يقتضي من النفقات ، وطلب تأليف لجنة لحماية البناء الحجري فكان له ما اراد . وادرك الناس ما في جانب هذا الرجل من الحق وان مناظر الطبيعة منبع غنى ، فأصبحوا اذا أرادوا مد سكة حديد في مكان ما يستعينون برأي اصحاب الفن فلا يقدمون على تشويه جمال تلك البقعة . ولم تلق دعايته للألبسة القديمة والاعياد الرمزية اذانا صماء . والغريب أن الذي يمر اليوم بمدرسة البنات في « شلسا » اول ايار يرى المعبد والدار مزدانة بالازهار مهداة من كل انحاء انكلترا . فتنتخب الطالبات ملكة أيار من بينهن فتمر تحت قبة من الاغصان المتعانقة ووراءها ملكة العام الماضي ثم تعتلي العرش بين صفين ، وتمر الطالبات من امامها يتقبلن الهدايا من يديها ، وكلها مؤلفات روسكين .

*

لم يفهم الناس روسكين فرموه بالتعصب والكبرياء والتناقض وجعلوا اخلاصه استبداداً ، وكرمه الحاتمي محبة ذات . ذلك لانه

كان صريحاً الى ابعد حدود الصراحة لا يبالي برضاء الناس او غضبهم . قال له احدهم يوماً : اني معجب بما تكتب . فأجابه : وما يهمني اعجابك ، أتراك استفدت شيئاً مما اكتب ؟ وجاءه وفد من طلاب غلاسكو يرشحونه لرئاسة جمعيتهم فسألوه : هل هو مع دزرائيلي او غلادستون ؟ فأجابهم : وماذا يهمكم دزرائيلي او غلادستون ؟ انتم طلاب علم وما عليكم ان تهتموا بالسياسة اكثر من اهتمامكم بمطاردة الفيران . ولو انكم قرأتم عشرة اسطر لي لادركتم انني لا اسأل عن غلادستون او دزرائيلي ، ولكني اكره التحزب السياسي كرهي للشيطان . وانا ، مع كارليل ، لله والملك .

ولم يسلم هو نفسه من نقداته اللاذعة ، وكم رجع عن خطأ سابق ، وكان صارماً في انتقاده كتبه . وكان انسانياً بكل ما في هذه الكلمة من معاني الانسانية ، فساعد الفقير والعامل ، وبدد ثروته البالغة خمسة ملايين في جواهر للمتاحف وخبز للأكواخ .

وكان الى ذلك خطيباً ساحراً . انظر اليه وهو يصعد الى المنبر في اوكسفورد ، وقد ضاق النادي بالحاضرين وهجر التلامذة صفوفهم ليسمعوا ، وامتلأت النوافذ والشرفات ، وتعذر اقفال الابواب لازدحام الناس ، والنساء كالرجال عدداً ، وبينهن اميركانيات عبرن الاطلسي لسماع ذاك الذي يسميه كارليل « روسكين الاثيري » . وما كاد يطل عليهم حتى علا الهتاف من كل جانب ، ووقف الناس على رؤوس ارجلهم ليروا تلك القامة المديدة والشعر الطويل ، والعينين المتغيرتين كالامواج ، والفم

المتحرك كالقوس عندما ينطلق عنه السهم ، والسحنة الجامعة في ملامحها بين الحماسة والهزء والتأمل . حتى اذا أنصت القوم حياهم بابتسامة واخرج بين يديه اشياء مختلفة من حجارة ومعادن وصور ونقود وما شاكل يستشهد بها في عرض حديثه ثم يبدأ بالكلام بهدوء كأنه قس يتلو صفحة من التوراة ، ويرتفع صوته شيئــاً فشيئاً،فيترك اوراقه جانباً ،ويجيل بصره في الجمهور وقد ملك عليهم مشاعرهم وكان محامياً فصار نبياً . أغريزة ، ام علم ،ام دهاء ، ام عبقرية ؟ لا يعرفون ، ولكنهم يصغون اليه وقد طرحوا الورق والقلم واعرضوا عن تدوين ما يسمعون ومشوا وراءه في الطريق الملتوية التي يقودهم فيهـــا ، وفي كل منعطف واد جديد وافق جديد . وما هي الا لحظات وإذا بهم يرتفعون معه ارتفاعـــاً مستمراً حتى يصلوا الى القمة التي تشرف على العالم . . .

هذا الساحر العظيم كانت له اسطورته كالابطال . يقال انـه دخل يوماً مخزن مجوهرات فعرفه البائع فاقبل عليـه يعرض كل ما عنده من الحجارة الكريمة ، طالبــاً اليه أن يكشف عن اسرارها . وتألبت من حوله فتيات المحـل والسيدات الشاريات فوقف بينهن وتكلم . تكلم بعلم الزعنفـة الذي يسلب الامواج درّها وسحر الجنية التي تحرس الدر : هذا الياقوت الاحمر وردة فارسية ، لون الفرح والحب والحياة على الارض . الزهرة التي استُخدم برعمها لاناء العطر الذي سكبت منه المجدليـة على قدمي المخلص . وهذا اللازورد مثل الفرح والحب في السماء ، لا تفرق عن الياقوت الا بلونها الازرق ، وهذه اللؤلؤة ، خضوع الضياء ،

رمز الصبر ، لون الحمامة التي تبشر بتراجع المياه . والمرغريت زهرة اللؤلؤ ، والاقحوان رمز التواضع ولكنها غالية الثمن لان التواضع يفتح ابواب الفردوس المطعمة جدرانه بالزبرجد .

وقص عليهن ولادة هذه الاحجار في اعماق الارض والبحار ثم التفت اليهن يقول ما معناه :

هل من المعقول ان نحب هذه الحجارة ونكرمها ؟ نعم . على شرط ان تكون هي التي نحب لا ذواتنا . ان عبادة الحجر الاسود الهابط من السماء لا تبعد كثيراً عن الحكمة التي هي عبادة السماء نفسها . وليس من الجنون ان نفكر في ان الحجارة ترى ، بل الجنون اذا فكرنا ان العيون لا ترى . ليس من الجنون ان نفكر ان اليوم الذي تُجمع فيه الجواهر تكون حجر الزاوية لجدران الهيكل ، ولكن من الجنون ان نظن ان يوم انهيار الهيكل تذهب الارواح هباء ، ولا تبقى روحانية ما ، فوق الانقاض .

نعم ، ايتها السيدات الجميلات ، احببن الجواهر واعتنين بها ، ولكن احببن نفوسكن اكثر واعتنين بها ليوم يجمع السيد جواهره .

وكانت السيدات يصغين بخشوع ووهن الى هذه الاقوال التي لم يسمعنها من افواه من يرقص معهن في ساعات اللهو والسرور .

هكذا تريد الاسطورة ان يلقي المعلم تعاليمه ، لا في المدارس والمعاهد فقط ، بل على الطرق ايضاً .

ان فضل روسكين انه ايقظ الافكار ولفت نحو الجماعات انظار الادباء والفنانين ، وساعد بتعاليمه في اكسفورد على نشر

الفلسفة والفن، لانه لا يكفي ان يكون في الناس فنانون بـــل يجب ان يوجد من يتذوقهم ويقرأهم ويشجعهم . وكان بعـــد كارليل اول من نادى بالاخاء ومساعدة العمال بوضع حد ادنى للأجرة ، والضمان ضد البطالة . وهو مع ذلك عدو الاشتراكية ، ويعتبر المساواة وهماً لان دونها اهوال المطامع التي لا تحـــد ، والكبرياء التي لا ترد .

غير ان اتباعه ومريديه توسعوا في تفسير افكاره حتى ان بعض النساء نشرن جريدة فوضوية بعنوان « المشعل » . ولكن هـــذا المشعل ما عتم ان انطفأ في الضباب اللندني لان الفكرة الواقعية غالبة في الانكليز . وهـــذا وليم موريس الشاعر المزوق مات مؤخراً عن نصف مليون من الجنيهات تركها لورثته الاقربين دون ان يستفيد منها احد من العامة .

لقد نظر روسكين الى الطبيعـة بعاطفة محب للفن مؤمن به فلم ير منها سوى مظاهرها الغرّارة . وان الانسان ، عندمـــا يفكر بهذه المأساة الأزلية الغامضة الأسرار التي تمر بنا على مسرح الحياة ، وهذه الحرب الدائمة التي لا هوادة فيهـــا ونتيجتها ابداً انتصار القوي وانهزام الضعيف ، وهـذه المذبحة التي تولد وتموت فيها مواكب الناس بعد تهاويل الحياة وشقاء التقلبات ، لأميل الى تشاؤم داروين الطبيعي منـه الى تفاؤل روسكين السماوي . ان داروين وروسكين عـــلى طرفي نقيض في فهم الانسان والطبيعة ، ولهذا كان روسكين يكره داروين.

ان عبادة الجمال طريق لعبادة الله ، وهـذه النظرة الى الجمال

كانت تلائم - كما يقول تين - انكليز ذلك العهد المحافظين المتزمتين. فكان روسكين يشعر بالحنين الى العصور الماضية، عصور الحرارة والايمان، ويثني على معابد الطراز القوطي في فرنسا وانكلترا لانها تمثل تلك العصور. وكان يعجب بالقدامى من اهل الفن لطهارة الشعور فيهم. وفي رأيه ان التقهقر في الفن بدأ من عهد رفائيل، فقد كان الفن من قبل وسيلة لاظهار الدين، فصار الدين وسيلة لاظهار الفن. وبلغ به التعصب في هذا الباب انه لو استطاع لاحرق جميع النساء العاريات لروبنس وجورداتس ولهذا سماه بعضهم « توركمادا جمال ».

ويطول بي الشرح لو اردت تعداد كل ما فكر به روسكين او قاله او عمله. ومن عادة الناس ان يستهزئوا بالخارجين على التقاليد والعادات وينعتوهم بالمتهوسين، غير ان ذلك لا يمنعهم غالباً من ان يتبعوهم مأخوذين بحرارة القلب والايمان، والكلام. وعلى هذا الوجه قاد روسكين الرأي العام. وفي هذيانه الشعري المبعثر في ثمانين مجلداً كان يشعر باخطار الحالة الاجتماعية ويرى ما في حرب الطبقات والديموقراطية من الاسباب المؤذنة بانهيار المدنية. وجاءت ثورة الكومون في باريس وحرق باريس بعد الحصار (وقد ساهم بسخاء في انعاشها) فثبتت روسكين في مخاوفه. على ان تفاؤله السماوي لم يفارقه يوماً ولهذا ظل رسول الفة وسلام بين الطبقات.

*

هكذا كان حب الطبيعة الالف والياء في حياة روسكين

فظهرت آثاره في قسمات وجهه وتجعدات جبينه ،واملى عليه كل حرف من كلماته، ووجه كل خطوة من خطواته، واجرى كل معين من افكاره. وكان له النور الذي يضيء، والنار التي تعطي الحرارة وتطهر، فاقصاه عن صغائر البغضاء وعن عذاب الحب، واطلقه في ميادين الابحاث العلمية لان العلم وحده يساعد على الدخول على الطبيعة في هيكل اسرارها .

ولا عجب اذا اعتبره الناس رجل اسطورة وهو الذي حارب وحده عالماً باسره، لا من اجل الحقيقة التي لها انبياؤها، ولا من اجل العدالة التي لها رسلها، ولا من اجل الدين الذي له شهداؤه، بل من اجل ما هو فوق هذه الاشياء وربما اجتمعت كلها فيه: الجمال .

نيتشه

دين القوة

●

لقد شبّه بعضهم المذاهب الفلسفية بالازياء العصرية ، وهذا التشبيه على ما فيه من قلة الاحترام اذا قابلنا بين الهدف الاسمى الذي ترمي اليه الفلسفة وهي الحقائق الخالدة ، وما تمثل الازياء من اباطيل العالم الزائلة ، لا يخلو من الحقيقة لاننا نرى الفلسفة تتبدل كالثياب والقبعات وربطات العنق . ذلك لان الانسان مطبوع على حب الجديد والرغبة في التنقل . فترى كل جيل يسعى الى معارضة الجيل السابق،وكل فرد يحاول ان يتخذ مكانه تحت الشمس ،فينكر اقوال من تقدّمه ويثور على افكار السلف وعاداته واذواقه ، منزلاً عن العروش الهتها ليقيم بدلاً منها هياكل اخرى .

بالامس جاء شوبنهور فصوّر الحياة في اسوأ مظاهرها واشدها ظلاماً وأبعدها يأساً . وطلع علينا تولستوي يحمل غصن الزيتون ويبشر بديانة الانسانية المتألمة،وهي كلمات كانت لها روعتها عندما قيلت للمرة الاولى ، صادرة عن ضمير حي واحترام صادق . اما اليوم فقد اصبحت تردد على كل لسان بحكم العادة دون اخلاص

او اقتناع . وبعد شوبنهور وتولستوي لفت انظـــار الناس في العالم القديم والجديد تعاليم ستِرنر ونيتشه وهي تناقض كل المناقضة ما أ لِفوه . ولقد كان المعروف عن الفلسفة انها محبة الحكمة فجاء ستِرنر ونيتشه يجردان الحكمة من الاداب والاخـــلاق . وبينما الناس تردد مع الشاعر العربي :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت   فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

نسمع صوتاً جديداً يقول : « ان الآداب فكرة حمقاء ، وان الشعب المتعلق باخلاقه قاصر العقل ، قليل الابداع ، عاجز عن الرقي . وان الشهوات وحب التمتع بالملاذ دون الرجوع الى نداء الضمير او الشعور بوخزاته هي التربة الصالحة التي تنمو فيها انصع زهرات الفكر » . وقد جاءت هذه الفلسفة مطابقة لاميال الكثيرين ، فصادفت مرعى خصباً في نفوسهم ، وسرت حركة جديدة ضد الدين وضد الآداب وضد الاجتماع . ولكي نفهم حقيقة فلسفة نيتشه علينا ان نتكلم اولاً عن ستِرنر ، وستِرنر يرجع بنا الى فيلسوف الماني آخر سبقه في هذه الطريق هو هجل . كان هجل يقول : لا يوجد دين بل اديان ، لا يوجد مبادىء بل وقائع ، لا يوجد آداب بل عادات . فتلقى تلاميذه هذا الكلام كسيف ذي حدين وتمادوا في استعماله هادمين التقاليد الكنسية والعقائد الدينية . وبعد ان كان الانسان ظل الله على الارض صار الله ظل الانسان في السماء . حينئذ ظهر ستِرنر فحطم صنم الانسانية وبدل منه عبادة الانانية المطلقة في كتابه « الوحيد وملكه » ، ثم جاء نيتشه فحصر هذه الانانية في الانسان الاسمى أي السوبرمان .

وقد حاول سترنر، بمنطق لا يخلو من الاناقة في التعبير، ان يبرهن ان ما نسميه انسانية، غير موجود وانه ليس على المرء ان يخضع لما هو خارج عنه سواء أكان الهاً أم بشرياً، وانه لا حقوق الا حقوق الفرد، وان ما ألفناه وتخذناه كآيات منزلة مثل الادب والفضيلة وعظمة الشعب وما شاكل، فكرة فرضت علينا واشربتها نفوسنا فصارت شغلنا الشاغل كالفكرة الراسخة في ذهن المجانين. وأي فرق بين مجنون يظن نفسه امبراطوراً او الهاً ورجل من الناس يتصور انه وجد على الارض ليلبي دعوة ربه فيكون مؤمناً او وطنياً او ذا فضيلة. هذه الفكرة الراسخة التي تحمل الانسان على احترام الحكومة او المعبد او المجتمع هي في نظر سترنر عفريت يمتص دم الحياة، ولا يكون الانسان حراً الا اذا انكرها وطردها من رأسه وأبى الخضوع لهـــا. وحريته لا تكون حقيقية الا اذا استخدمها من أجل ذاته وجعل من «انا»، الالف والياء أي بداية كل شيء ونهايته. حتى اذا ما قطع كل الصلات الاجتماعية أمكنه ان يقول كما قالت احدى بطلات كورنيل عندما سئلت بعد قتلها اولادها: ماذا يبقى لك؟ فاجابت: يبقى انا، انا وحسبي.

«انا» أي محبة الذات في اقصى حدودها وأسمى ذرواتها، وكل عوامل الادب والاخلاق التي شغلت البشرية وضغطت عليها طوال العصور ليست الا اوهاماً، وباسم هذه الاوهام كان الحكام والزعماء والمربون يسيطرون على العقول ويصرفون امور الناس كما يفعل مروضو الدببة فيرقصونها ويقفزونها على نغم المزمار.

فاذا تحررت « انا » فقد تخلصت من القفز والرقص .

ان ستيرنر لا ينكر الشعائر الانسانية ولكنه يجردها من صفة الواجب . اسمعه يقول : انا لا اعرف قانوناً . احب الانسان لان ذلك يروق لي ، اما ان اضحي نفسي له فتلك فكرة لا تخطر في رأسي ابداً . احبه لاني بالحب استطيع الوصول الى ما اريد . والعشق نفسه اذا قبلت بحكمه وتركت لسهام الالحاظ سبيلا الى قلبي فلأن ذلك ضرب من حب الذات . اني اشفق على كل ذي احساس فاتألم لالمه وافرح لسروره ، فانا قادر على قتله براحة ضمير ولكن لا على تعذيبه . انا لا اتعلق بشيء ، وغاية ما اطلب ان اعيش لنفسي واتمتع بما اريد كما اريد . كل ما يمكنني الاستيلاء عليه هو ملكي وكل الوسائل حلال في هذه السبيل : الاقناع والرجاء والاكرام والكذب والخداع والرياء . القوة وحدها تخلق الحق . ماذا تهمني مصلحة الآخرين ، فمصلحتي اريد . والحرية لا تكون الا بمحبة الذات . » اسمعه يقول ايضاً : « اذا رأى الكلب كلباً آخر يتلهى بعظمة ولم يهجم عليه لينتزعها منه فلانه شاعر بعجزه عن ذلك . اما الانسان فيحترم حق سواه بعظمة . وهذا ما يقال له الانسانية ، واذا اعتدى عليه نسبوه الى التوحش وحب الذات . دعوني من حديث العدالة والخير العام . ان حب الذات وحده قائدي ودليلي وهو يقول لي : استول على ما انت في حاجة اليه . »

هكذا ينكر ستيرنر الواجبات الاجتماعية ولا يعترف الا بالمصلحة الذاتية . واليوم ما اكثر الذين ينفرون من هذه التعاليم

ويستفظعونها في الظاهر ، واذا خلوا الى انفسهم قالوا : انا معك يا سترنر ! وهل كان اكثر المحتكرين والمضاربين الذين يمتصون دماء الفقير الا من هذه الطبقة ؟ لقد اقام ستيرنر سلطان الانانية على انقاض كل سلطة الهية او بشرية . وما نيرون عند حرقه روما بتلذذ ، وما لويس الرابع عشر عندما صاح « المملكة انا » الا كالبعوض ازاء هذا المعلم في احدى مدارس برلين الذي ينادي من كوخه الحقير : الكون انا .

لا حاجة بي الى نقد مزاعم هذا الفيلسوف ، فاذا كان اساسها حب الذات فلا احد ينكر ان حب الذات اساس الاجتماع . وما خرج الانسان من ظلمة الوحشية وارتقى في سلم العمران الا على ضوء هذه العاطفة . فحب الذات شرعة طبيعية بل هو الشرعة الاولى : وجودها واجب ونافع على شرط ان لا تتجاوز حدود الاعتدال والحكمة فتفسد وينقلب نفعها الى ضرر ، لانه كما يقول برونيتيار لا حق لاحد ان يدعي السلطة الكاملة على ما يعمله او يفكر به ، لانه لا أحد يختص بنفسه دون المجتمع فهو مدين له في الماضي ومحتاج اليه في الحاضر . ينسى ستيرنر ان لحياة البشر شرائع طبيعية وان الممالك لم تقم على فكرة راسخة كما يدعي بل على غريزة البقاء . فالانسان حيوان اجتماعي لا يستطيع ان يعيش وحيداً ، بل عليه ان يرضي محبة ذاته ويرضي محبة ذات الآخرين . ولو اراد الواحد منا ان يحقق ادعاءات ستيرنر لعارضته الوقائع ووقفت الحقائق سداً في وجهه . ولو اراد ستيرنر نفسه الذي كان رجلاً هادئاً مسالماً ان يجرب بالعمل ما يقول لمنعته شرطة

برلين واعادته الى الحقيقة والواقع . فتعاليم سترنر ليست شيئاً في نظر الفيلسوف ولكن لها اهميتها في نظر المؤرخ ، لانه لم يكن بين الذين حاولوا هدم العرش والهيكل ومن اتبـــاع هجل من استطاع مثله ان يحتج ابلغ احتجاج على النظـام القهري الخانق الذي كانت عليه بروسيا في منتصف القرن الماضي . وما ذكرت هنا آراءه الا لانها كافلت تساعدنا على فهم نيتشه وتفسير مذهبه .

*

لم اجد كاتباً حطم بمعول فلسفته اصنام العقائد وانزل الالهة عن عروشها لينتصب مكانها الهـــاً في عقول الناس مثل نيتشه . ولا ادري أكان الجنون الذي انتهى اليه فأوقف حركة عقله قبل ان تقف حركة جسده نتيجة هذا الاجهاد والجهاد مع ما عرف عنه من افراطه في استعمال المخدرات وغرامه الشديد بالموسيقى ، ام هي ضربة لازب لما بين العبقرية والجنون من النسب المزعوم ؟ على كل حال فان غرابة اطواره وميله الى الوحدة وغضبه الدائم على معاصريه من حملة الاقلام وكبرياءه الفائقـــة امور تحمل على الشك في انه كان موفور الصحة خالياً من شائبة المرض .

وفضلاً عن ذلك فهناك تناقض تام بين الرجل والمؤلف ، فان دعة اخلاقه ولطف معشره وتعلق تلاميذه بـه وحب النساء له على الرغم مما كان يكيل لهن من الشتائم في كتاباته ، لا يتفق مع ثورة الفكر والقلم التي صفع بها جميع المبادىء القائم عليها نظـام الاجتماع . لقد كان نيتشه اعدى عدو لهذا الاجتماع المملوء نفاقاً كما كان جاك روسو من قبله . وكما نادى روسو بالعودة الى الطبيعة

والسليقة نادى بها هو ايضاً، مع هذا الفرق بين الاثنين: ان روسو كان من عامة الشعب في عالم ارستوقراطي، ونيتشه ارستوقراطي الروح الى ابعد حد في عالم اخذت الديموقراطية التي تنبأ عنها روسو تتحقق فيه .

لقد استولى على عرش كبريائه ، ومن ذروة هذا العرش ارسل حكمه على البشر ، فقسم الناس الى فئتين وجعل بينهما هاوية سحيقة . فئة النبلاء وهم القلة — ولا يعني بالنبلاء تلك الطبقة المعروفة بقدم العهد او الالقاب او غير ذلك من الامتيازات بل اصحاب الارادة والعمل والاطماع الذين خلقوا للامارة والحكم والابداع — وفئة القطيع البشري الكثير العدد اسير العبودية ، عبودية التقاليد والحقد والحسد، والبغضاء لكل سابق او متفوق. كل ما هو سام وعظيم في العلم لا يصدر في اعتقاده الا عن هذه الفئة القليلة من الاشراف . وبالعكس اذا كان السلطان للعبيد فان اعمالهم لا تأتي بغير السافل والدنيء كما في الديموقراطيات حيث تغلب الكمية على الكيفية ويتحكم النعاج بالاسود .

فالمذهب الارستوقراطي ، مذهب نيتشه ، يزعم ان الرقي يقوم على تنازع الطبقات اكثر منه على تنازع البقاء ، اي بفوز الرجال العظام قادة الشعوب الذين يسكبون في عروق الامم دماً جديداً ، واذاً فتكون غاية الانسانية انتاج رجال عظام وتضحية الجماهير في سبيلهم . والمذهب الديموقراطي وهو مذهب تولستوي ايضاً يقول ان الذي يكتب التاريخ هم الجماعات ، واما تلك القلة التي تدّعي الزعامة فضررها اكثر من نفعها ، وعليه

فغاية الانسانية تضحية الفرد للجماعة لا الجماعة للفرد . ومعنى ذلك سلطة الشعب والتصويت العام فالاشتراكية . وبما ان الرقي عمل اجتماعي فلا يجوز حصر فوائده في الاقلية بل يجب أن يتمتع بها جميع الناس .

ان نيتشه لا يعترف بشرعة ادبية واحدة للبشر بل عنده ادبان ، ادب للجبابرة وادب للاقزام، ادب للسادة وادب للعبيد. فالرحمة والاحسان والامر بالمعروف وحب القريب وسائر الفضائل التي تتغنى بها الجماعات شرٌّ في عرفه ، ولا صلاح ولا فضيلة الا في القوة والشدة والتحكم ، تلك هي صفات الاشراف او علية القوم التي لا تعرف من الواجبات الا اطلاق العنان لغرائزها فتكون حليتها حب الذات والتجرد عن كل ما يسميه عامة الناس ادباً .

اسمعه يقول : « محبة الذات لا تختص الا بمن كان شريف الروح ، اي ذاك الذي عنده ايمان لا يتزعزع بانه فوق الناس وله يجب ان تخضع وتضحي سائر الناس ، فهو خارج عن نطاق الخير والشر .»

فالرجل الاسمى او السوبرمان هو الذي لا دين له ولا وطن ولا اسرة . ولا قيمة للشرائع الادبية عنده الا بقدر ما تسمح له ان يكون السيد المطاع .

هذه المبادىء الغريبة التي تمتاز بها تعاليم نيتشه تكاد تكون فطرية فيه ، فقد شهر الحرب على العرش والهيكل، وهو في الثالثة عشرة من عمره، فلم يجد في النصرانية الا دين رقّ واستعباد لانها بتعظيمها الزهد والرحمة والوداعة ونكران الذات قد جزت اشرف

غرائز الانسان وبدلت منهـا فضائل كاذبة ، وحولت العالم الى مستشفى كبير ليس فيه سوى مرضى وممرضين مع ان الواجب الاول على الانسان ان يكون صحيح الجسم .

ولم يكن عداؤه للحكم الديموقراطي باقل من عدائـــه للكنيسة ، فهو يرى في الحكومات وبلاً على المدنية الا اذا استلم مقاليدها رجل ظالم وبسط دكتاتوريته عليها .

ولا يكفي الانعتاق من نير الدين والحكم ليستحق الرجل الاسمى هذا اللقب ، بل عليه التخلص من نير المرأة ايضاً . ان دليلة المحتالة تقلق بال نيتشه ، ولهذا فهو يحتقر الزواج ويفضل ان تعامل المرأة على الطريقة الشرقية – كذا يقول – فلا يطلب من هذا الجنس الخائن الذي يخفي برائنه تحت قفاز مخملي ، سوى اللذة والنسل الجميل . وابغض النساء اليه المترجلات اللائي يطمعن بالتصدر في المجالس ويدعـــين البطولة كمدام تيل ومـــدام رولاند وجورج ساند .

وهو لا يحترم من المفكرين والكتاب الا من عرف ان يصور حياة عصره ، مثل مكيافيلي وستاندال ودستويوفسكي . اما الفلاسفة وعلماء النظريات فلا مقام لهم عنده ، فينسب الخمول لداروين ، والرياء الى « كانت » ، والتسميم الى « سبينوزا » .

ويعجب بعصر الوحشية والقوة . ومن هذا الاعجاب يستقي كرهه للعصر الحاضر ، عصر الكسل والرفاهة وعصر التقهقر الادبي والفسيولوجي الذي يسمح للضعفاء بالحياة والتوالد ، مما يؤدي الى اضعاف النسل .

اما ناموس القوة الذي بشر به فقد قدمه الى الناس في كتاب جعله انجيل او توراة الجبابرة : هكذا تكلم زرادشت .

فهذا الكتاب الغريب الذي هو شبه توراة للجبابرة استعار فيه الاله زرادشت ليلقننا شرعة الاقوياء ويقربنا من حقيقة الانسان المتفوق على الانسانية . ولا احاول الا جولة صغيرة في هذا الكتاب الضخم المتشعب المسالك ، الغامض الابحاث، الكثير الرموز لتلخيص ما يرمي اليه من تحقيق هذه الفكرة الهائلة السامية التي ترفع الانانية الى درجة التقديس فيبز فيها ستزنر ومن كتب قبل ستزنر هذا في الموضوع ، هادماً من اجلهم المبادىء الادبية ، محطماً الواح الوصايا التي تدير نظام الاجتماع ، جاعلاً الخير غير الخير، والشر غير الشر ، مبيحاً السرقة ، مشجعا على القسوة ، منكراً صحة كل شيء ، معترفاً بجواز كل شيء ، ما خلا الضعف مهما يكن في هذا الضعف من بوادر الصلاح او الفساد .

على انه اذا جردنا زرادشت من حلته الشرقية واخرجناه من جمال الاطار الذي يخلعه عليه البحر والجبل وذاك الخيال الشعري البعيد المدى لم نجد في هذه التعاليم ما يبدو للوهلة الاولى من جدتها وغرابتها ، بل ظهرت لنا في حلة مستعارة وسمعنا من خلالها صدى اصوات فلاسفة آخرين، من افلاطون الذي كان يريد في جمهوريته طبقة من الاشراف ابطال الحروب ، الى مكيافيلي الذي يرى في الديانة الوثنية تمجيداً للعظمة والهيبة والقوة ، الى دي ميستر الذي ينادي بالدم وضرورة الحروب للاتيان بعظيم الاعمال . وقديماً قال الشاعر العربي :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى   حتى يراق على جوانبه الدم

وهذه القسوة الفائقة التي يبشر بها نيتشه وهـذه الثورة على العادات والتقاليد والآداب الاجتماعية التي ينادي بها نجدها تحت اقلام الكثيرين من الكتاب والشعراء كشلر وبيرون وبلزاك وستاندال ، ولكن احق الناس بان يكون مصدر وحيـه هو شوبنهور . غير ان شوبنهور يتفوق عليه عند الاستنتاج ، اذ يلجأ الى الزهد ملقياً نفسه في احضان النرفانا نظير بوذا ، وما النرفانا سوى الغيبوبة عن هذا العالم في سبيل الخلاص الابدي .

ان ما يمتاز به كتاب نيتشه هو جمعه بين التناقض ليجذب اليه الناس ويبعدهم عنه في آن واحد ، يجذبهم اليه بما فيه من كراهة الكذب والنفاق ومحاربة ضعفاء العزيمـة والارادة والالحاح في استعمال الشدة والقسوة نحو ذاتنا ونحو سوانا ، فهو يتطلب جيلاً قوياً ونسلاً جميلاً ولا يرى للحياة معنى ان لم يتفجّر من صخرتها العمل العظيم والابداع ، فيخال لنا في حالة الوهن والاضطراب التي تتخبط فيها الانسانية اليوم ان نيتشه يحمل في نفسه آلام الحاضر كما يحمل آمال المستقبل . وهذا ما حببه الى الناشئة الطامحة وجعله عظيماً في عيونها . ويدفعنا عنه بما يحاول من فصل الانسان عن الانسان وتقديسه الكبرياء والشر واحتقار الآخرين وحب الذات في اقصى حدوده . ولقد شبهوا فلسفة نيتشه بالسم الذي يفيد اذا اخذ جرعات صغيرة ، فقد يكون فيها علاج لداء العصر المتفشي من يأس وسوداء وملل من الحياة . اليس هو القائل : « يجب ان نستيقظ كل صباح وفينا من الارادة فوق ما لنا بالامس ،

علينا ان نعرف العالم كي نحاربه ، فلنحب الحقيقة وما فيها من شناعة وخبث رائحة ومصاعب واخطار ، ولنخلع عنا اليأس ولنقصر الشكوى والانين ، ولنقو على اخفاء الالم ولنهرب من الشفقة كما نهرب من العار ، ولنجعل قلوبنا قاسية قساوة الماس . غير ان هذا العلاج لم يشف داء العصر المستحكم بل بدل مركز الثقل فيه وحوّل ضعف الشبان ويأسهم الى صلف وغرور وربما دفع البعض الى ارتكاب الاثام . على ان نيتشه ينكر هؤلاء التلاميذ في ضلالهم ، بل يأبى ان يكون له اتباع ، لان الاتباع يدخلون في عداد القطيع اي العبيد ، وعلى كل فرد ان يستقل في نظره وخبرته فيفهم العالم كما يريد .

لقد اراد نيتشه ان ينظم قصيدة الشدة والبطولة فجاءت ابياتها ملأى بالنقائض ، ومن خلال آياته وحكمه واناشيده وصوره كانت طريقة كثيرة الالتواء والمنعرجات . فهو ينهى عن الرحمة ويأمر بها ، ويمنع الالم ويمتدح مزاياه . لا يكره الكتاب المقدس لما فيه من العطف على الضعفاء ويعجب به لما فيه من حب الانتقام : « عين بعين وسن بسن » هذا من آداب السادة . واما «من يلطمك على خدك الايمن فادر له الايسر »فهو من ادب العبيد . وينكر الصداقة على المرأة ويشبهها بالهر ويتخذها صديقة له . ويوصي بالحب لتحسين النسل ويطلب جلد المرأة بالسياط . ينهى عن الواجب ويأمر بالطاعة ، فيحمل على الحكومات حملة شعواء لانها تخدم الفضوليين الدخلاء على الحياة ثم يقول : « اكرم السلطة ولو كانت عرجاء» الى آخر ما هنالك من الوصايا المتناقضة

الجائزة بين معناها الظاهر ومعناها الخفي . وجملة القول ان نيتشه يحملنا على اجهاد الفكر ويمشي بنا على شفير الهاوية او فوق قمم خطرة فلا يطبق القاريء كتابه الا وقد اصابه دوار، وصار كمن يتلمس طريقه للهبوط من هذا العلو الشاهق الى صعيد الحياة .

هذا هو نيتشه رسول القوة . لقد كان في حياته شاعراً مغرماً بالموسيقى وبنات الافكار والاناقة الارستوقراطية، وكان لطيف المعشر محبوباً رقيق الشعور شديد الاحساس ، ولكنه كثير الاحلام فجاءت فلسفته نتيجة لاحلامه وخياله اكثر منها نتيجة لاخلاقه حتى انتهت به الى الجنون . والغريب أن جنونه كان مبنياً على هذيان الاضطهاد والعظمة فظن نفسه لا زرادشت بل المسيح على الجلجلة . هذا الاله الذي حاربه لانه اله المستعبدين اصبح غاية مناه واقصى مشتهاه ، وربما كان ذلك يقظة الغيبوبة بالعودة الى ايمانه القديم لان والد نيتشه كان قسيساً .

تولستوي

دين الرحمة

●

عندما شن الالمان هجومهم الاول على روسيا وتغلغلوا في اراضيها شطر موسكو ، مرّوا في طريقهم ببلدة تولستوي فأمعنوا فيها تخريباً وبددوا ما في خزائنها من كتب هذا الفيلسوف وآثاره ، كأنما هم ارادوا فيما نهبوا واحرقوا ان يصبوا جام انتقامهم على تلك القرية التي اخرجت اكبر عدو لمبادئهم . فقد كان تولستوي رسول السلام وهم دعاة الحرب ، ينادي بالمساواة وهم ينكرونها ، ويعارض الخدمة العسكرية وهم يقدسونها .

وليس حب السلم والدعوة الى المساواة اصل الشهرة التي احرزها تولستوي . فان هذه التعاليم السامية قد سُبق اليها ، وقديماً ردد صداها العالم القديم بما نقله لنا التاريخ من اقوال كونفوشيوس فيلسوف الصين «إنس الاساءة ولا تنس الاحسان» او «تصرّف مع الآخرين كما تريد ان يتصرفوا معك» . ان شهرة تولستوي ترجع الى امرين : الاول معارضته الانجيل الذي يدين به فتراه من جانب يعلّم مثله حب القريب والعفو والتسامح

والبعد عن الاكراه والشدة ، ويتقيد بذلك الادب الذي سماه نيتشه ادب العبيد اي من لطمك على خدك الايمن فادر له الايسر. ومن جانب آخر ينكر الخطيئة الاولى كما ينكر سر الفداء ، ولا يؤمن بالخلود بل يرى أن في الاتكال على الحياة الثانية ورجاء القيامة ضعفاً وصغاراً . ويعتبر ان هذه الحقائق الخالدة من الحب والمسالمة وعدم اتقاء الشر بمثله يمكن الانسان الاهتداء اليها لنفسه بدون معونة الانجيل ، وعليه فلا يهم اكان الانجيل منزلاً ام من صنع البشر . فمسيحية تولستوي مشوبة بالتجديف ، وهي اشبه بوحدانية بوذا منها بشيء آخر .

والامر الثاني ان تولستوي كان اول من طبق تعاليمه على نفسه ، فدافع عن الفلاح ، ولبس جبة الفلاح . وناهض العظماء وتخلى عن مكانه العظيم بينهم ، وحارب الاغنياء وحرم نفسه من التمتع بثروته ،فلم يكن يحمل في كيسه الا بضعة دريهمات. وكل الظواهر تدل على انه لو تُرك الامر اليه نفسه لفرق ماله على الفلاحين ولكنه كان اباً لأسرة كبيرة كثيرة العدد،فكانت زوجته تتولى ادارة ثروته الادبية،وبنوه ادارة املاكه والتصرف بها وفقاً لعادات الأسرة وتقاليدها.والحق يقال ان حياة تولستوي كانت مثلاً للغرابة . وعلى الرغم من نبالة محتده فقد نزل الى معاشرة سائر طبقات الاجتماع واحترف غير مهنة ، فكان معلم مدرسة وسكافاً وفلاحاً،وتقلب بين الترف والشظف ، كما تقلب بين الايمان والجحود .

اما فلسفة تولستوي فنختصر بكلمة ابي العلاء المعري :

وزهدني بالناس معرفتي بهم وعلمي بأن العالمين هَباءُ

ولكن زهد تولستوي لم يكن بالسكوت والعزلة بل بتجريد قلمه لمحاربة الاستبداد والظلم والفساد والملكية والاشتراكية، فانتهى الى النتيجة التي انتهى اليهـا فيلسوف روسي آخر هو البرنس كوروباتكين، اي الغاء التجنيد ومحو الحدود والوطنية وإبطال المحاكم والعقاب بالموت، ولا فرق بين الاثنين سوى ان كوروباتكين يدعو الى التمرد وتولستوي يوصي بالرفق واللين. بل هو يذهب الى ابعد من زميله فلا يكتفي بشجب النظام الحالي وحقوق الملكية والقمع والقصاص، بل يصب سخطه على المدنية بأسرها، متهما العلم والرقي بأنها منبع الشر والفساد، متمنياً خراب المدن الكبرى التي هي مسرح البذخ والتهتك والاجرام. وهو كجان جاك روسو يطلب العودة الى الطبيعة وساحة الحيـاة البدوية الاولى.

ومذهبه في الحب يملأ ناحية كبرى من فلسفته الاجتماعيـة فيصف في « أنـا كرانين » شقـاء الفسق ونفاقـه، ويذهب في كتاب آخر الى ابعـد من ذلك فيصدر حكمـه القاسي عـلى الزواج بالحب، هذا الحب الزوجي الذي اعتاد الكتاب ان يصوروه في رواياتهم تصويراً عارياً، فاضحين أسرار الأسر بلا خجل، من كتاب Monsieur, madame et bébé لكوستاف دروز الى «العاشقة» لبورتوريش، الى «الزوج الشهواني» لموريس دوناي. لقد أثر في نفس تولستوي هـذا اللون من الحب وبدا له مشبعاً بحب الذات والأثرة، فأراد ان يبرهن للناس ان الزواج

الذي توحيه عاطفة الشهوة الجسدية لا يمكن ان يجلب السعادة وان هذه الدقائق المعدودة التي يرتمي فيها كل من الزوجين بين ذراعي الاخر حلم سرعان ما يزول. فاذاهدأت ثورة الاعصاب وجد كل من الزوجين نفسه بعيدا عن الاخر بعد النجوم .

وفي كتابه « البعث » يدرس وجها اخر للحب - امير يغوي خادمة - فيجول في وصف البغاء والاثم جولة شاعر ملهم ، طارحاً على بساط البحث مسألة التبعة الادبية ، محاولاً ان يجد في الطبيعة البشرية مهما بلغت من الانحطاط عذرا يبررها ويدفع عنها العار ، قائلا مع هيكو باحترام المرأة الساقطة ، وان يبرهن لنا ان مكارم الاخلاق وروح التضحية لا تنحصر بقوم دون اخرين فقد تكون عند الحقير والفقير ولا تكون عند السيد الكبير .

وعلى الجملة كان تولستوي واقعيا وخياليا معاً ، ولهذا لم يخلُ من المناقضات . واعظم تناقض كان في شخصه . فأن تعاليمه تقضي بالعزوبة وهو لم يحافظ عليها ، وبالفقر ولم يتجرد ابدا من المال . على ان هذا لا يطعن في اخلاصه الذي يتجلى في كل ما كتب . ولا نجد صفحة لا يقطر من سطورها لبان الحنو والرحمة . وكل من كان يدنو منه كان يشعر بسحر اخلاقه الملكية ، وما في حركاته من البساطة والبعد عن التكلف .

وهو وحده القائل : ان كل اصلاح اجتماعي يجب ان يبدأ بالاداب ، وان لا يُفرض فرضا ، بل يجب ان ينبع من اعماق الضمير الفردي . وهكذا يرجع في النتيجة الى الفرد في كل شيء كستريز

فيقول : على الانسان ان يسمع صوت ضميره ولا يخضع إلا له . كل فرد يحمل في نفسه الشريعة والانبياء. ولكن طبيعة تولستوي لا تنتهي بـــه الى حب الذات مثل ستونر ، ولا الى قسوة نيتشه الارستوقراطية ، بل الى الرحمة وانكار الذات .

غوته

•

فتح غوته عينيه على النور وهو هزيل البدن ضعيف البنية كما ولد فولتير من قبله، وكما ولد هيكو من بعد، وقد خيف عليه يومئذ ان لا يكون من ابنـــاء الحياة كما خيف على فولتير وهيكو كذلك، ولكنه تغلب على ضعفه وهزاله، وكفولتير وهيكو جاوز من العمر الثمانين.

جاء الى العالم حاملا ثقل وراثتين، فأخذ عن ابيه الحزم والعزم وعن امه المرح والروح الشعرية، فتعلم الموسيقى والرسم والتاريخ الطبيعي وسبعا من اللغات.

وحمل القلم وهو في العاشرة، وكان واسع الخيال بعيد مطارح الفكر ومرامي التصور. واول كتبه «آلام فرتر» انتهى منه في الخامسة والعشرين فكان اول بشائر النجاح في الادب.

وقـد وجد الحب مرتعاً خصباً في فؤاده، فتعددت شموسه المشرقة حتى انه احب شقيقته كالشاعر الانكليزي بيرون، ولكن بيرون كان ابعد مدى واكثر تطرفاً.

وهذه الشموس المشرقة في سمائـه كانت ترسل اشعة الوحي حول قلمـــه فجاءت صورة مرغريت في «فوست» للمرة الاولى كما

كانت الفتاة «كروتشن» اولى معشوقاتـه ثم تبدلت عندما احب «فردريك » التي كان يجتمع اليها في الكنيسة، ولهذا تتعدد مشاهد الكنيسة في فوست . وكل ما عرفه من اخلاق فردريك ونبلها تجسم في سطور كتابه . ولا ريب ان هذا التقلب في تأثيراتـه كان يزيد في خبرته، وكلما طلعت الحياة عليه بتعليم جديد اضافه الى تعاليمه السابقة . وما اكثر هذه التعاليم والتأثيرات بعدما تعرف الى شارلوت وليلي ومدام شتـــاين وبيتابرانتو ومينا هرزليب وغيرهنّ .

وكان غيوراً في حبـه متكبراً يحب ويترك فجأة من احب كأن فيه شيطاناً يأبى عليه ان يستقر على حال .

وكان من اقبال الناس على كتابه « آلام فرتر » ان تعرّف الى دوق فيار واستحكمت عرى الصداقة بينهما، فنزل الى ميدان السياسة واستلم دفة الحكم وانشأ ملعباً للتمثيل .

وقد اصابه في شبابه داء مستعصٍ توصل الدكتور متز الى شفائه منه بملح عجيب لم يبح بسره ، فحبب ذلك الى غوته درس الكيمياء وما وراء الطبيعة واصبح مخدعه بما حوى من الادوات والانابيب والانابيق والدخان المتكاثف في جوه يذكر الداخل اليه بعهد كاليوستر الساحر ومسمر المنوّم المغناطيسي .

وكان يتألم من الدوار والضجيج ويكره منظر اللحوم المعلقة عند الجزارين ، فسعى الى معالجة نفسه بنفسه فحارب الضجيج بمرافقة الجيش في غدواته والمشي الى جانب الطبل ليألف صوته ، وحارب الدوار بالصعود الى قمة جرس الكنيسة يطل منها على

الفضاء الواسع ويجيل نظره في الافق المترامي متغلباً على ما كان يشعر به من الزعج والقلق ، وحارب نفوره الفطري من منظر اللحوم بتعلمه التشريح واشتراكه فيه .

واحس ذات يوم انـــه تعب من الناس ومل حياة المجتمع والسياسة والمسرح وفي رأسه مخدرات معان آن ان يطلع النهار عليها. فسافر الى ايطاليا وكان سفره اشبه بالهرب فلم يُعلم بـــه صديقه الدوق ولا عشيقته مدام شتاين . وفي ايطاليا انفتحت امامه آ فاق جديدة للفكر والعمل ،حتى اذا عادمنها عاد بهمة جديدة وانصرف الى البحث والتنقيب في الفيزياء والنبات والتشريح ، ودفع إلى المطبعة كتباً مسرحية . وتعرف في اثنـــاء ذلك الى خرستين وهي اصغر من مدام شتاين بعشرين سنة ، فتعلق بها تعلقاً غريباً افضى به اخيراً الى الزواج . واتاحت له الايام صديقاً جديداً هو الشاعر شلر مؤلف «اللصوص» و«الخداع والحب» فكان لهذا التعارف اثر عميق في كتاباته .

وكان يحب نابوليون الامبراطور ويعجب به ويعشق النبوغ اينما وجد . وهذا الاعجاب الذي كان يملأ نفسه ، وتعشّق كل ما هو جميل وعظيم دفعاه الى دراسة الصين والفرس ، فاحب حافظ الشيرازي وحاول درس العربية للاطلاع عـــلى احوال فلسطين والارض المقدسة .

هكذا كانت حياة غوتـــه في شبابه تلم بكل مناحي الحياة والفكر من سياسة وادب وفلسفة وصبابة ، وقد تعددت تآليفه فيها ،غير ان غوته الحقيقي لم يظهر إلا في الشيخوخة . والواقع ان

الشيخوخة فنٌ وقليل من اهتدى سبيله . خذ هيكو مثلاً فانه لم يكن في شيخوخته اعظم منه في كهولته . اما غوته فقد كانت الشيخوخة له مجالاً جديداً لحياة جديدة . لا اقول انه في هذه المرحلة من العمر طلق الشهوات، فقد احب في العشرين السنة الاخيرة ثلاث مرات حباً شديداً . ولكنه كان يعرف ان يجمع بين لهب الحب ورماد التضحية . واخر من احب فتاة في الثامنة عشرة كان من قبل قد احب امها وجدتها ، فكان حبه سلسلة اتصلت حلقاتها بثلاثة اجيال .

وكانت داره في فيمار ملتقى العظماء يفدون عليه من كل صوب وينحنون امام عظمته ويستمعون الى احاديثه ،وهو في جو فلسفة عالمية واسعة الاطراف يتصل بها كل ما يجري في العالم ،فلا يغيب عنه شيء مما يخص الدين والسياسة والعلم والكيمياء والانسانية . وقد حافظ في هذا الدور من العمر على رباطة جأشه وسكينة فكره واشراق نفسه على الرغم من الاحزان والهموم وتداعي الاشخاص والاشياء من حوله .

ومن احاديثه في هذه الاجتماعات المتعددة المباحث كلام عن الشعر أحب ان أنقله لشعراء هذا العصر الذين ينكرون شعر المناسبات قال :

« العالم واسع غني والحياة كثيرة المظاهر ، فلا تحرم الانسان من موضوع شعري . ولكن يجب ان يكون الشعر شعر مناسبات اي ان يكون الواقع هو الدافع اليه . كل موضوع خاص يصير عاماً ويرتدي طابعاً شعرياً متى استلهمه شاعر . كل

اشعاري هي اشعار مناسبات لانها وليدة الحياة الواقعية واليها تستند . اما الشعر الهوائي فلا احبه . والشاعر من عرف ان يستخرج من الحوادث العادية شيئاً يكون من ورائه لذة وفائدة . »

واشهر كتب غوته هو «فوست» ، وقد سلخ في تحبيره ستين عاماً ولم ينشر القسم الثاني منه الا بعد موته . إن عمل غوته وحيد في نوعه فلم يذكر التاريخ غير غوته رجلا اقدم على درس مأساة البشرية في مجموعها ، وعلى تمثيلها في آن واحد على مختلف المسارح للحياة الانسانية ولحياة ما وراء الطبيعة . ولم يبلغ مؤلفو اليونان ولا دانتي ولا شكسبير مابلغه غوته . فعند اليونان ابطال يتصارع بعضهم مع بعض او مع الآلهة ، وعند دانتي تتغلب لاهوتية الشاعر وحقد المتألم ، كما تتغلب في شكسبير العاطفة وما تخلقه الغرائز والاميال والاحلام من العلائق بين الاشخاص .

ولكن عند غوته تتكتل كل هذه العناصر في فوست ، فصراع الالهة والشرائع ، وتدخل دائم للاهواء والحب ، واصوات من العالم القديم والحديث والقرون الوسطى . ويضع غوته الرجل وجها لوجه امام هذه الطبائع المختلفة الالوان ، والرموز الحية التي تحيط بنا وتسيّر خطانا وتؤثر فينا أبعد تأثير ، وعلينا ان نقبلها او ندفعها حسب الاحوال وما نتفهمه من مصيرنا ومن الاقدار .

هذه كلمة مقتضبة عن فوست وصورة مصغرة لمؤلفه الذي ترك في عالم الادب والفكر الاوروبي اثرا عميقا وكان له في العلوم الطبيعية والفلسفية شأن بعيد . وقد حارب في شعره في سبيل

الجمال والشرف اللذين لا يختصان ببلد او بأمـة ، فكان كالنسر المحلق يجوب البلدان ولا يهمه ان يعرف ان الارنب الذي ينقض عليـــه هو الماني او سكسوني . وكان يقول : اي شيء اعظم من وطنية الشاعر الذي يقضي حياته في محاربـــة الاوهام والتقاليد الفاسدة وتنوير الاذهـان وتطهير الذوق ورفع مستوى الشعب شعورا وتفكيرا ...

*

بلغ غوته من العمر عتيا ، ولم يوالِه الزمان في ايامه الاخيرة ، فاتسعت الوحشة من حوله بعد من سلبه اياه الموت من الاحباب والمعارف ، ولكنه بقي مـــع ذلك صبيح الوجه حاضر النكتة متوقد الذهن الى ان دقت ساعته فأغمض عينيه عن هذا الوجود ، بعد ان اطل على عالم الخلود .

رنان

•

قلما اجتمع لكاتب ما اجتمع لرنان فأحاط بشتى الموضوعات وألمّ بمختلف العلوم من آثار وتاريخ ولغات وفلسفة . وكان فوق ذلك منشئاً بليغاً يعد في الطبقة الاولى من كتاب فرنسا . وقد جاء في كل ما كتب بآراء فيها كثير من الغرابة واحياناً كثير من التناقض . واليوم بعد مرور نحو من ستين سنة على وفاته سيبقى كما كان في ايامه داعياً للحيرة عند النقاد لانه لم يقل في اي كان من المباحث التي طرقها كلمته الاخيرة ، بل وقف بين النفي والاثبات والشك واليقين . وقد كثر شراحه لا لصعوبة تناوله بل لتعدد ألوانه وخصب انتاجه ، فكانت افكاره كالمجرة في السماء يرى الناظر انوارها « ويغرق في تيارها وهو مصقع » .

ولا احاول اليوم في هذا الفصل الا الالمام بناحية واحدة من نواحيه وهي الفلسفة .

*

من الاوهام الراسخة في الاذهان ان التربية الكاثوليكية قيد للفكر تمنعه من التحليق في سماء الابداع . ولكن وجود رنان نفسه جاء دليلاً على فساد هذا الزعم ، لان تربيته الدينية تركت اثراً

عميقاً في حياته الادبية والعقلية. لقد اعد نفسه لخدمة الكنيسة، غير ان ايمانه كان قصير العمر، فهجر المدرسة التي احتضنته، وهو في الثانية والعشرين، ونزل الى ميدان الجهاد العالمي لا صاحب له ولا معين ولا مال سوى الف فرنك اقتصدتها له اخته هنرييت من نفقاتها الخاصة. فلم يأت عليه ثلاث سنوات حتى كان قد انتهى من تأليف كتابه الاول «مستقبل العلم»، وفيه بنى كل آماله على العلم في تجديد التربية والادب والسياسة والاجتماع واقامة بنيان وطيد للعدالة بين الناس باتحاد العلم والديموقراطية. غير ان هذا الكتاب بقي مطوياً عملاً باشارة بعض اساتذته. ولما اراد طبعه بعد اربعين سنة اصابه ما اصاب «لتره» عندما اعاد نظره على ما كتب في العلم الوضعي بعد ثلاثين سنة من كتابته. ولكنه لم يحذ حذو «لتره» في اظهار اخطائه بل اكتفى بالابتسام، فقال في المقدمة انه تردد كثيراً في نشره لئلا يصدم ارباب الذوق. واذا كان للكتاب من مزية فلأنه يُظهر في مظهره الطبيعي شاباً متهوساً يعيش بفكره ويؤمن بالحقيقة كل الايمان.

ورأى رنان ان العلم لم يحقق آمال البشر ولكنه تحاشى ان يقول انه لم يف بوعده. وما هو هذا الوعد؟ وهل يمكن البحث في افلاس العلم افلاساً كاملاً او جزئياً في زمن له فيه كل يوم فتح جديد؟ على كل فقد ضاعت ثقة رنان الاولى ورجع عن اعتقاده بان العلم يغير الطبيعة البشرية ويجدد وجه العالم، ورأى من الجنون فكرة هداية مليار من البشر، فمهمة العلم الوحيدة هي معرفة الحقيقة لا تحقيق المثل الاعلى، لان الحقيقة واحدة واما

المثل الاعلى فيختلف باختلاف كل فرد . وكل انسان يحوك ثوب عدالته واجتماعه على قدر طاقته وحاجته .

لقد هجر رنان اوهامه الاولى وبقي من اشياع العلم الوضعي ولكنه كان شاعراً ، فظل افق الاحلام لامعاً امام عينيه ، فهو ينكر ما وراء الطبيعة ولا يقبل إلا ما يثبته العلم . غير انه لا يجهل عجز العلم، وانه كلما تقدمنا خطوة فيه زدنا احتكاكاً بالمجهول واللانهاية . ولو افترضنا ان العلم بلغ درجة الكمال وامكن الفلسفة ان تكون ام العلوم فتميط اللثام عن اسرار الوجود فان هذا العلم يصبح حينئذ مقبرة العقل البشري ويجرده من احلامه ويخلع عن العالم حلة جماله وجلاله . ذلك لان العلم يفسر لنا كيف ، ولا يفسر لماذا ، ولا جواب عنده للأسئلة الكبرى التي تشغل كل مفكر : هل للحياة غاية ، وهل في الوجود فكرة أدب ، وهل يتمشى الانسان الى نهاية اسمى ؟ لم الحياة ، ولم العذاب ؟ ولم الموت ؟

هذه اسئلة لا يجيب العلم عنها . نعم هناك تفاسير كثيرة ولكنها شخصية متناقضة حسب امزجة اصحابها وادمغتهم ، ولهذا يقول رنان : كل انسان يولد وله فلسفته كما يولد وله انشاؤه . ما الفلسفة الا صوت يصدر عن النفس عند اصطدامها بالحقيقة ، وما المذاهب الفلسفية سوى قصص النفس وحكاياتها ، وابطال هذه القصص تسمى الجوهر الفرد ، الفكرة ، الارادة ، اللاوعي .

المذاهب الفلسفية صحيحة في رؤوس اصحابها ولكن لا تشرك غيرهم فيها لانه لا يمكن تأييدها بالاختبار والمنطق ، ولهذا

نجد رنان الذي يحب التفلسف يتحاشى كل منطق ويقيم مكانه ما يسميه « الفرق الطفيف »، فهو لا يؤيد كالمؤمن ولا يجحد كالكافر بل يبقى في شعوره بين بين .

ولقد فكر رنان باديء ذي بدء بتعليم الفلسفة ونال رتبة استاذ فيها، ثم انقلب عنها الى فروع اخرى، ولكنه اشار الى ما كان يعتمده من اسلوب في التدريس لو مضى في فكرته الاولى . فهو يعشق التساهل ويحترم عقائد مستمعيه فلا يسعى ليبرهن، بل يقف عند حد اعطائهم الفكرة ليبني كل هيكله كما يشاء .

وقد يعرض له ان يتكلم عن المسائل الادبية فيقول ان الادب هو الاصل وان الايمان يأتي عن غريزة الواجب والتضحية . وليس الانسان في حاجة الى المذاهب الفلسفية ليحب الخير ويكره الشر ، ولا سيما لان من هذه المذاهب ما لا ادب فيه كالنفعيين مثلا . على انه من الخطأ ان نعتقد ان اعمالنا الصالحة تفيدنا في هذا العالم لانه كثيراً ما يخدع الواجب فيذهب الانسان ضحية لطيبة قلبه .

هذه هي بعض آراء رنان الفلسفية وما فيها من تناقض، وهو يخلع عليها لباساً من اللطف والاناقة ويتحاشى فيها كل جدل فلا يطعن ولا يدافع ولا يجزم . وكثيراً ما يلمح من خلالها أثر لتعاليم كانت وهجل وشوبنهور . يدرس كل الوجوه وكل المسائل ولا يرضيه واحد منها فهو على نقيض بانكلوس معلم كانديد في رواية فولتير . فقد قال بانكلوس مرة ان كل شيء في العالم على احسن ما يرام ، فظن نفسه مقيداً بهذا القول وعليه ان يؤيده حتى

في اشقى حالاته . اما رنان فهو احرى بأن تكون له كلمة بنجمان كونستان : الحقيقة لا تكون كاملة الا اذا ادخلت ضدها فيها .

لقد اضاع رنان آماله بقدرة العلم ورأى ان الحقيقة لا تنير وتهدي الا من كان له من نفسه هاد إما بالفطرة واما بما ورثه من عادات الفضيلة عن آبائه المؤمنين . ولهذا كان يقول ان الفضيلة في عصور الشك هي بقية باقية من عصور الايمان . وان حياته هو نفسه كانت مسيرة ابداً بايمان قديم لم يبق منه في صدره الا مثل ما يبقى من العطر في الاناء .

- ٢ -

لم تكن الفلسفة عند رنان سوى ضرب من اللهو والتسلية بخلاف التاريخ ،فقد استغرق وقته وفكره واهتمامه فكان من الحق ان يسمى مؤرخاً قبل ان يسمى شيئاً آخر .

أراد رنان بعد ان عرف كيف تنتهي العقائد ، باختباره ذلك في نفسه ، ان يعرف كيف تبتدىء . ولكن افكاره كانت متجهة في الوقت عينه الى تاريخ الحاضر فانصرف ايام الملكية الى بعثاته ودروسه ، بينما كانت الحياة العمومية في هدوء كأنه شبه اختناق، الى ان نشبت الحرب السبعينية فاضطر الى الخروج من سكونه واحس بالاضطراب والقلق والجزع على مستقبل بلاده .

جاءت هذه الحرب ضربة قاضية على احلامه واوهامه . فقد كان يظن ان في الامكان اتحاد المانيا وفرنسا عقلاً وادباً وسياسة ، اتحاداً يجذب اليه انكلترا فتمشي هذه الامم الثلاث في طليعة

الحضارة والرقي، ولكنه وقع في الخطأ التي وقعت فيه مدام ستايل التي لم تكن تعرف من الالمان سوى شعرائهم ومفكريهم، فآمن باساتذته هجل وهرور وستروس حتى جاء بسمارك بخيله ورجله فكشف القناع عن الحقيقة وفسر له تعاليمهم ابلغ تفسير ...

لقد طعن الفتح الالماني رنان في الصميم، فكان يُرى في الطريق شارداً يائساً دامع العينين يلعن الحرب ومسببيها . وقد اسرع بقطع صلاته مع المانيا كما قطعها من قبل مع الكنيسة برسالة بليغة بعث بها الى الدكتور ستروس . واصبح بعد ان كان لا ينظر الى العالم الا نظرة المتفرج دون ان يخطر على باله اصلاحه ، اصبح ولا هم له سوى البحث عن وسائل هذا الاصلاح فالف كتابه «الاصلاح الفكري والادبي» .

كان رنان في كتابه الاول «مستقبل العلم» ديموقراطياً يتعشق رجـال الثورة واسطورتهم التي بعثها من القبر سنة ١٨٤٧ مثله ولوي بلان ولامارتين ليسقطوا حكومة تموز، ولكنه عاد عن رأيه بعد ان شاهد فظائعها واصبح يؤثر احقر حكومة ملكية على اعظم حكومة انتخابية ، منددا بالديموقراطية ، مظهراً اخطار الثورة طالباً الرجوع الى ملكية عسكرية كما كانت بروسيا قبل يانا . وترك التصويت العام الذي وضعه غوغاء ١٨٤٨ والتوفيق بين الكنيسة والتعليم الابتدائي « لان الدين يقوم عند عامة الشعب مقام العلم والفن » ، واعتاق التعليم الثانوي من بلاغة جوفاء تتخذ الالفاظ كأنها معان والمعاني كأنها وقائع ، وترقية التعليم العالي الى ابعد ما يمكن . وكان يقول ان قوة المانيا لم تقم الا على ركنين : ثقافة

الرؤساء ونظام الجنود .

ولم يطل عليه الوقت ليتبين ان ارجاع الملكية في فرنسا امر مستحيل ،فوجد نفسه مضطراً الى تعليق اماله على جمهورية اسسها فلاحون ، وتمنى ان تكون معتدلة عاقلة شريفة ،وراح يتابع خطواتها بعواطف متقلبة غلبت السخرية فيها فالف « المحاورات » و« المآسي الفلسفية » ليفهم رجال السياسة ،الذين تسلموا مقاليدالحكم والذين يحاولون بناء ثروتهم على مصائب الوطن ، مدى احتقاره القلبي لهم .

هذا الاحتقار يشغل حيزاً كبيراً من فلسفة رنان ،فتراه يغدق الثناء على الارستقراطية واخلاقها وتساهلها ،ويعيب « لامنه » لانه لم يتماد في احتقاره كما تمادى في غضبه . ما اعظم الفرق في هذا بينه وبين ليبنتز الذي كان يقول « انا لا احتقر شيئاً » . وما قولكم بعالم في الطبيعة يحتقر سرطان البحر او عقرب الماء ويخص باحترامه الطائر الهندي المسمى عصفور الجنة ؟ ان اشكال الحياة البشرية كلها لازمة لانها موجودة . غير ان منها ما يضر فيجب منع ضرره ؛ والاحتقار وحده لا يفي بهذه الغاية بل هو تعزية العاجزين .

ولكن لرنان عذراً في انه كتب هذه المحاورات ايام الثورة واحراق مكتبة اللوفر . فرأى في هذا العمل الوحشي نتيجة لفكرة المساواة التي كانت ترمي الى محو كل تفوق حتى في اثار السلف ، وحصر السلطة في دكتاتورية العمال المصبوغة بالدماء ، واستنتج منه ان الحضارة لا تقوم الا على ايدي سلالة جديدة يحق لها الحكم

والسيطرة لا بالعلم فحسب بل بتفوق الدم والدماغ والعضلات .

ما ابعد حلم رنان هذا عن اشتراكيته الاولى التي ترسم لكل فرد عمله ، والتي كان مستعداً فيها ان يصطنع بطيبة خاطر حرفة يدوية للارتزاق مع بقاء الفكر حراً ، متشبهاً بالعامل سبينوزا الذي كان يصقل زجاج النظارات ، والرواقي كليانس الذي كان سقاءً ، والفيلسوف الاسكندري سكاس الذي كان حمـالاً . لقد خابت آماله في فردوس الاشتراكيين فعاد وهو لا يرى من فضل او نعمة في غير الارستوقراطية المفكرة .

وقد لقي كتاب «المحاورات» من الاقبال ما دفعه الى كتابة «المآسي الفلسفية» . وهذا اللون يلائم روح رنان الذي لا يعرف ان يبدي فكرة دون ان يقيم نقيضها في رأسه ، فكان ابطاله صوراً لافكاره المتناقضة يطلق لها عنان الكلام كيف شاء . ولا يتسع المجال لشرح هـذه المآسي من « كاليبان » الذي استعاره رنان من رواية الزوبعة لشكسبير ، الى « نبع جوفانس » الى « كاهن نمي » وغـيرها . كل هذه الكتب عراك بـين الديموقراطية والارستوقراطية ، او بالاحرى انتقـاد لاذع للاولى وتمجيد للثانية . على ان هذا كله لم يمنع رنان من استجداء صوت الشعب في انتخاب مجلس الشيوخ سنة ١٨٧٦ وحجته في ترشيح نفسه ان عضوية الشيوخ تعرضه للاخطار والقتل وهو يفضل ذلك على موت طبيعي او انحلال بطيء على فراش المرض ، ولكن الاقدار ابت إلاّ ان يموت حتف انفـه فلم يشعر بلذة السقوط تحت مدية المعتدي او رصاص القاتل .

لم يكن مثل رنان في البعد عن المخاوف البورجوازية فيقول في « مستقبل العلم » ان اشد الازمنة هولاً هي اخصبها إنتاجاً ، ولا بد من الدم المراق لارواء العبقرية ، وإن الاعمال الخالدة التي صدرت عن امثال فيدياس وافلاطون وارستوفان كانت في عصر يشبه عصر الارهاب في فرنسا ، وان مونتاني لم يكن يجهل وهو مكب على تآليفه ان القتل ينتظره من ساعـــة الى أخرى في منعطف كل طريق ، فمن الواجب التشبه بهؤلاء الكرام لنعيش بهدوء وسط المعمعة .

وبعد ان وضع رنان اماله في الدين لتجديد فرنسا ، ثم في العلم والديموقراطية ، ثم في الاصلاح على منهاج ارستوقراطي وجد من العبث الالحاح في الباطل فدخل الى نفسه وعاش في جو من العزلة الروحانية ، سابحاً في عالم التأملات ، مترفعاً عن الناس ، هازئاً بهم .

وهكذا أدى رسالته للفن والعلم والنقد ، بعد ان وفاها قسطها من التحليل والشك والمراقبة . اما كلمته الاخيرة فقد عرفناها من شاهد عيان حضره عند الوفاة ، فقد تناول قلم الرصاص وهو يحتضر وخط هاتين الكلمتين : « تأييد . معارضة » فكانت حياته كدفتر حساب توازنت فيه الارقام بين من والى .

هربرت سبنسر

•

من اعظم مفكري الانكليز في القرن الماضي ، وقد بقي اسمه حتى صدر هذه المئة على لسان كل اديب وعالم . ولكن الشهرة كالازياء لها عهد وينقضي . فقلما تجد اليوم من يستشهد به مع انه لم يطرق موضوعاً الا ترك فيه اثراً عميقاً من تفكيره ، ولا سيما في الحرب التي شهرها على الاشتراكية والنظام البرلماني .

كان سبنسر اعدى عدو للاشتراكية ومع ذلك فالاشتراكيون يستندون اليه في دعم مذهبهم ويتخذونه على الرغم منه حليفاً لهم لانه اظهر منذ الساعة الاولى ميله الى جعل الارض ملكاً للامة . ولكن الذين يستشهدون به ينسون انه طالب بتعويض عادل للملاك ، فهو يعترف بحق الامة في ملكية العقار ولكنه لا يعترف لها بحق الاستيلاء على كل ما اضافه الانسان الى الارض من عمله الخاص ، او ماله المكتسب بعرق جبينه . وجل ما يحق لها السيطرة عليه هي الارض الصخرية والمستنقعات والغابات .

يقول سبنسر ان ملكية الارض بادىء ذي بدء كانت عملا استبدادياً لا يخلو من السرقة والتزوير فكان فيه اللص يتلو اللص . ويقدم مثلاً على ذلك النورمانديين فقد اغتصبوا الارض اغتصاباً

من الداغاركيين والسكسون، كما اغتصبها السكسون من السلت، والسلت من ابناء بريطانيا العظمى الاصليين. فاذا اراد المجتمع اليوم ان يستولي على عمل ألفي سنة فقد اتى امرا إدّا وارتكب من اللصوصية اعظم مما ارتكب اولئك. ثم ان دخول العقار في حوزة الامة لايأتي بالفائدة المطلوبة لان ادارة المجتمع لا تضاهي ادارة الفرد في تصريف الامور وتسييرها سيراً موفقاً.

وفي برنامج الاشتراكيين مادة اخرى لم يقف سبنسر فيها عند رأيه الاول: تلك حرية المرأة. فقد رأى بالاختبار انه من الخطر اشراك المرأة في السياسة وابى عليها ما للرجال من الحقوق السياسية، لانها لاتقوم بما يقومون به من الواجبات ولا تساهم في الخدمة العسكرية كثيراً او قليلا.

ولا بد هنا من القول ان رجوع سبنسر عن رأيه الاول في هاتين المسألتين: ملكية الامة للارض وحرية المرأة، كان نتيجة العلم والاختبار. واذا اخذنا على رجال السياسة تقلبهم في اقوالهم واعمالهم فلا يسعنا الطعن في المفكرين امثال سبنسر عندما يعيدون النظر في ارائهم القديمة ويمحصونها على ضوء الحقيقة والواقع.

على ان هناك امراً ثبت فيه منذ البداية ولم يحد عنه قيد شعرة، وهو اهتمامه بالطبقة العاملة. فقد دافع عنها دفاعاً مستطيلا وظل حتى النهاية يردد ويعدد ما يكتنف مستقبل الاكثرية من ظلام وشقاء. فالبطالة والازدحام في المساكن الضيقة المظلمة الفاسدة الهواء، والمهن المضنية، والشيخوخة المحزنة، والانقسام البلبغ

بين الطبقات ، وتفاوت الارباح الهائل وحصة الاسد المعدة منها للمخدوم على حساب الخادم ... كل هذه الادواء يشكو سبنسر ويتألم منها، الا انه لايظنها غير قابلة الشفاء .

كان سبنسر من المتفائلين المؤمنين بالرقي على شرط ان لايبقى الانسان مكتوف اليدين بل يتدخل تدخلاً فعلياً في مقدرات نفسه ، ولكنه لايعتقد بدواء سحري يشفي من الامراض كافة . فهو يبني فلسفته عـلى ناموس النشوء والارتقاء ويشبه جسم المجتمع بجسم الفرد، اي انه قابل مثله للتأثر بعوامل خارجية كالتربة والمناخ وداخلية كالمزاج والاهواء . وكما يبدأ نماء الجسم بالجرثومة يبدأ نماء المجتمع بالاسرة، ثم القبيلة، الى ان تتألف الامم والشعوب ، فتنقسم حينئذ الى فئتين او جيلين او مثالين: مثال ينتحل الجندية ومثال ينتحل الصناعة. والفرق بين المثالين: انّ المرء يفقد حريته في الاول على ان تُكفل له حاجاته من مطعم ومسكن وكساء، بينما يظل في الثاني حراً يعتمد عـلى نفسه في هذه الحاجات . على ان المثال الخالص عسكرياً كان او صناعياً غير موجود . ويمكن القول ان دول اوربا مزيج من الاثنين ، فهي نصف عسكرية ونصف صناعية . ويرى سبنسر ان المثال العسكري غالب في المانيا، والصناعي في انكلترا واميركا، وفيهما دليل ناصع عـلى ما يمكن الشعب ان يصل اليه من البسطة والغنى بدون الحرب .

ويقول سبنسر: من العجيب ان الطبقات العاملة تشعر بضرورة السلم وتكره الفكرة العسكرية، ومع ذلك نراها تحاول من حيث لاتدري تطبيق نظامها الاستبدادي عـلى الصناعة باخضاع الفرد

للدولة فيصير الصناع جنوداً يتحكم بهم النظار والمفتشون بدلا من الضباط والقواد .

ويرد زعماء الاشتراكية على هذا بقولهم ان الفرق عظيم بين الحالين ،لان النظار والمفتشين هم مندوبون خاضعون لرقابة الشعب معرضون للانتقاد والعزل ، فلا يمكن العامل ان يكون مقيد الحرية كالجندي .

وعلى الجملة فالاشتراكية في نظر سبنسر رجوع الى الوراء لايتفق مع سير الحضارة .

اما عداوته للنظام البرلماني فراجع الى فكرته الاساسية التي تجعل من المجتمع جسماً حياً ينمو ويكبر حسب شرائع طبيعية لا قبل للانسان ان يبدّل فيها كما يشاء. والحياة الاجتماعية لا تنتظم اتباعاً لخطة يرسمها العقل والمنطق بل اتباعاً للحاجات الماسة ولن تجد مجتمعاً راقياً قام طبقاً لبرنامج او خطة موضوعة من قبل بالمناقشة الرسمية . ففي اي حال كان لا سبيل للانسان ان يغير الاشياء الطبيعية الا بخضوعه للشرائع الطبيعية .

وهذا ناموس عام ينطبق على الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وعلم الاجتماع . وبما ان نمو المجتمع تابع لاسباب عمومية . لا سلطة للارادة البشرية عليها ،فسيادة الشعب مربوطة بالجهل ، لا يمكنها ان تهتدي الطريق او تعرف الوسائل التي ينمو بها المجتمع. وجل ما تستطيع هو ان تقر وتثبت هذه الوسائل .وعليه فليسن المندوبون عن الشعب ما شاؤوا من الاحكام والشرائع والقوانين فالعبرة في جعلها ذات فعل نافذ . وقد عمل سبنسر احصاءً

للقوانين التي صدرت في انكلترا ولم تنفذ فاذا بهافوق ما يتصوره العقل .

من اين اذاً هذه الثقة العمياء بما يمكن البرلمان ان يجريه من اصلاح ؟ وعلام هذا الايمان بالحكومة الذي يشبه ايمان المتوحش بالصنم ؟ يعزو سبنسر ذلك الى انتشار التعليم . ومن العقائد الراسخة في الاذهان ان التعليم يهذب الشعب وينيره ، وهذا وهم لانه لا يوجد صلة بين قضية هندسية وادب النفس . ولا يكفي تعليم الاولاد ما هو الخير ولماذا يسمى خيراً ليصنعوا الخير عندما يكبرون. فانتشار التعليم غير كاف ليجعل الشعب قابلاً للحكم الحر. ولا بد من الاخلاق ، بل قد يساعد التعليم الناقص على نشر اخطاء كثيرة . واذا كان المثقفون لا يقبلون بمطالعة ما يخالف طريقة تفكيرهم وشعورهم فما قولك بالشعب اذا كان لا يتذوق الا ما يوافق هوىً في نفسه . وابلغ دليل على نتائج هذا التعليم ، هو هذه النشرات التي تغذي الاوهام لان الجريدة تسعى قبل كل شيء الى ارضاء مشتركيها ، فتقوي فيهم بهذه الطريقة اميالاً شتى يصعب تحقيقها وتجعلهم يظنون ان الحكومة قادرة على معالجة كل الشؤون، ومن واجبها التدخل في كل كبيرة وصغيرة. وتردد على مسامعهم في كل سانحة امكان تبديل النظام الحالي. وبما انهم هم الذي سينتخبون فمن مصلحتها تقوية هذه العيقدة في رؤوسهم ، وهكذا يصبح الشعب الذي هو صاحب السيادة ألعوبة في يد رجال السياسة .

ثم يحمل سبنسر على النواب حملة شعواء متهماً اياهم بالجهل

والوعود الكاذبة والأثرة وتضحية مصالح البلاد في سبيل مصلحتهم الخاصة .

لقد كان لما كتبه «سبنسر» وخصوصاً في كتابه «الفرد ضد الدولة» صدى بعيد حتى قيل عنه انه فوضوي . وما لا ريب فيه ان هذا الكتاب الصغير قد ساعد كثيراً في بث الدعوة الى الفوضوية ولا سيما في الولايات المتحدة بتشويههم كلامه وتفسيره تفسيراً يوافق مصلحتهم . وسبنسر نفسه يقول : بين ويلين هما استبداد الاشتراكية وحرية الفوضى ، افضل الفوضى مع كل ما فيها من شقاء . ولكنه ليس فوضوياً بكل معنى الكلمة ، لان الفوضويين يطالبون بابطال كل وظائف الدولة بينما هو يريد ابطال البعض ودعم البعض الآخر ، فيطلب من الحكومة عدم التدخل في شؤون الدين والتربية والاعمال الخيرية لتكتفي بالمحافظة على النظام . هناك في نظره مبدأ عام يسيطر على علم السياسة وهو التعاوض بين ادب الاسرة وادب الدولة . ادب الاسرة يقضي بالعناية الفائقة للولد الضعيف الهزيل المحروم من نعم الحياة ، والاشتراكية تريد ادخال هذا الادب في الحكومة لتساعد اصحاب العاهات والعيوب وضروب النقص . وهذا ما جعلهم يتهمون سبنسر بقساوة القلب مع انه يطلب ان تقوم جمعيات خاصة بعمل الخير لا ان تتلهى به الحكومات فتصل الى تقهقر النسل بدلاً من تحسينه . هو يريد ان يتحمل كل انسان مسؤوليته فلا يتكل على غيره في ضعفه وكسله وجهله ، فلا يبقى في ميدان الجهاد وتنازع البقاء الا الانسب . وليس الانسب هو القوي بل الاكثر اهلية واستعداداً .

الارض المجهولة

•

اسمح لي ايها القارىء الكريم ان اسير بك الآن نحو بقعة من الارض لا تجدها على المصوّر الجغرافي ، وفيها من المفاجآت والعجائب والاسرار ما لا تقع عليه العين في اية ناحية من البسيطة .

هذه البقعة ليست ملكاً لاحد دون سواه ، ولا سبيل لدولة من الدول ان تستأثر بها فتركز علمها عليها . والثلوج الخالدة والشمس المحرقة ابعد من ان تمنع الزائر من الوصول اليها .

قد عرفت ولا ريب ماذا اريد بهذا القول . فهذه الارض المجهولة هي الطبيعة البشرية ، هي انت وانا ، هي كل ما اقلته الارض واظلته السماء ممن ينتسب الى الاسرة الانسانية . ولا تحمل كلامي على المزاح او تظن فيه مبالغة ما فهي الحقيقة تبدو لك ، اذا ما تمعنت ، في اجلى مظاهرها .

وُجد الانسان على الارض عاري العقل والبدن ، لا خبرة له بما مضى ولا فكرة لما سيأتي ، وكيفما اجال الطرف كانت تقع عيناه على اشياء مجهولة وحوادث جديدة ومظاهر غريبة . فكان لا يألو جهداً بدافع الغريزة والضرورة من المراقبة والتفكير والاكتساب . وكان كل واحد من البشر يعبد سيرة من تقدمه ويحذو حذو

أسلافه . كل شيء جديد في عين المولود الجديد .

ولكن الانسان في هذا الميدان الواسع الذي حاول فيه معرفة الطبيعة واستثمارها والسيطرة عليها بقي شديد الظمأ الى شيء لم يستطع الوصول اليه، الى شيء يقف عنده مضطرباً واهي العزيمة، ضعيف الأمل، حائر الفكر. ذلك معرفة نفسه وادراك كنه طبيعته والوقوف على سر مصيره. لقد تعلم استخدام البخار وتقييد الصاعقة، وجاب السماء، ودخل احشاء الارض، وفكك عرى الذرة، ولا يزال الانسان لغزاً للانسان. افيعد هذا مبالغة اذا قلنا ان اغمض ما في الارض على ساكن الارض هو نصف الساكن نفسه .

ومن الحماقة ان ادعوك ايها القارىء العزيز للتغلب على صعوبات قصر عنها اكبر المفكرين والحكماء والانبياء، ولا تزال قائمة في هذا العصر الحديث كما كانت في العصور القديمة. ولكن في وسعنا ان نستنتج منها ان طبيعتنا البشرية ذات كنوز وفيها من العناصر الثمينة المتعددة ما يتعذر سبر غوره وعده وقياسه على جيل واحد من الناس بل يجب ان تتعاقب على درسه اجيال واجيال . ان من السهل عليك ان كنت تملك قطعة ارض مثلاً ان تجوبها بسرعة . ولكن اين السهولة والسرعة اذا كانت مساحة هذه الارض واسعة شاسعة وفيها انهر وغابات وجبال ? كان لعاهل اسبانيا فيما مضى من سعة الملك ما جعل الناس يقولون ان الشمس لا تغرب عن اراضيه ... والانسان اعظم من شارلكان على ضخامة ملكه بما يملك من هذه الطبيعة البشرية .

ان بطرس واحمد وادما وسعاد والغني والفقير والامير

والصعلوك والذكي والخامل سواء في هذا الملك ، وعندهم في البدن واعضائه والجسم وحركاته وما يختلج فيهم من العواطف والافكار وتشتمل عليه ضمائرهم من الامال والاحلام منجم عميق يمكن استخراج الكنوز منه . والى جانب هذه الكنوز جرائم عيوب لا عداد لها اذا لم ينتبه الانسان اليها كانت وبالاً عليه . ولا احاول هنا البحث فيها ، فحسبي ان اذكر الحسنات التي فينا فهي تهدينا سواء السبيل ، وعلى ضوئها نستطيع عبوز مآزق الحياة باقل ما يمكن من الالم او الندم .

ان رحلتنا حول هذه المملكة المجهولة تريناأول ما تريناأعجوبة الاعاجيب ، عنيت بذلك الجسم الانساني البارز في احسن مثال وابدع تقويم ، والجامع في تركيب اعضائه بين المناعة والسهولة والخفة . فالارجل اثبت من عمد الحجارة والطين ، وهي مع الايدي اصدق نموذج لمخترعي ادوات الحركـــة والنقل وجر الاثقال . والمعدة والرئتان والدورة الدموية والقلب الخفاق مختبرات تمور فيها اسرار الكيمياء والفيزياء . والعينان منارتان اخذ عنهـــما الانسان في اختراع المنظار والمجهر وسائر الالات المعدة لالتقاط النور وتوزيعه . والاذن آلة حساسة تلتقط ما لا يرى ولا يلمس من الاصوات والموسيقى . والوجه كتاب مصوّر تتبدل سطوره كل آن فتقرأ فيه تواريخ واحاسيس وذكريات . والدماغ والجهاز العصبي مقر الأمر والنهي الذي يربط اجزاء هذه المملكة الواسعة بعضها ببعض .

وكل هذا ان هو الا اطار بديـــع لبدائع باطنية ، هو عتبة

الهيكل الذي تتنفس فيه وتحيا عذراء النفس الجامعة بين البطولة والالم والّلذة والرفعة والضعة التي قال فيها ابن سينا « هبطت اليك من المحل الارفع» والتي لا يستطيع فكر او قول او غناء او تعليل فلسفي او وصف شعري ان يستنفد ما فيها من المعاني .

يقول فيلسوف المعرة :

والذي حارت البرية فيه   حيوان مستحدث من جماد

ولكن الانسان مع ذلك غير الحيوان وغير الجماد .

غير الجماد لان مادته حية ، وغير الحيوان لان في طبيعته ما لا يملك الحيوان .

قد يشابه الحيوان الانسان ويشاركه في امور كثيرة .

فالببغاء تتكلم ، ولكن عن تقليد لا ادراك .

والنمل والنحل يعملان بحكمة وترتيب يثيران الدهش والاعجاب . ومنذ القدم ايام كان الانسان يأوي الى الكهوف وينام في ظلال الاغصان الملتفة كان النحل فعلاً يبني بيته بهندسة عجيبة . إلا ان الانسان تقدم وارتقى ، والنحل بقي مكانه .

والنسر يرى ابعد من الانسان ولكن الانسان اخترع مايفوق به النسر ،فيرى بالتلسكوب ابعد الاجرام ، وبالمكرسكوب اصغر الاجسام .

والاسد اقوى من الانسان ،والانسان يغلب الاسد بطلقة نار .

والسنونو اسرع من الانسان .غير ان الانسان استطاع ان يقرّب الابعاد ويقصر المسافات بما يسبق به السنونو،فيخاطب رفيقه من اقصى الارض الى اقصاها .

ذلك لان ذكاء الحيوان محدود وذكاء الانسان لا قيد له ولا حد . تلك هي مزايا الطبيعة البشرية،بئر من الاسرار، عليها الف ستار وستار .

*

اذا كان من منافع الاسفار العبرة والاختبار فما احرى الواحد منا ان يطوف حيناً بعد حين حول هذه الارض القريبة البعيدة فان من اعظم فوائدها انها تعلمنا ان يفهم بعضنا بعضاً . اتدري ما الذي يسبب شقاء الناس ويدفعهم الى الجور عن قصد السبيل ليسيئوا التصرف في معاملاتهم الاجتماعية؟هو قبل كل شيء استهزاء الانسان باخيه الانسان ، فالناس بالاجماع لا تحترم الناس ولا تقدر قدر هذا الكنز الثمين الذي يحمله كل منا ، ولهذا نرمي بانفسنا في مهاوي العار والخسة،لا نعرف سوى التباغض والتنافر والخصام الدائم،عابثين بحق الجسم علينا وحق العقل . لقد آثرنا العيش في الظلمات والمستنقعات والخوف بدلاً من الهواء الطلق والنور والطمأنينة والواقع الحقيقي ، فصدق فينا قول شاعر الفرنسيس :

الانسان ملاك ساقط لم يحفظ من السماء سوى التذكار .

فلنتعلم منذ الصغر ان نفهم انفسنا حق الفهم فلا نحتقر رخيصاً، ولا نحسد رفيعاً،ولا نؤذي ضعيفاً ولا نستبد فيما نملك. ولنذكر ابداً ان في الطبيعة البشرية كنوزاً عديدة لو استخدمنا جزءاً منها لبدّلنا وجه البسيطة وغطينا ما عليها من الشقاء والفساد بالصحة والسعادة والاحترام المتبادل والحياة الطيبة .

جزيرة الابالسة

•

ليست الابالسة سوى فئة من الالهة التي اعتنقتها الاديان البشرية من قديم الازمان، فكان للخير آلهة هي منبع اللذات، وللشر آلهة هي الشياطين التي تجلب الآلام للعالم . ولهذه الشياطين وظائف مختلفة . ففي الهند شيطان للعقم وشيطان للقحط وشيطان لليبس وعلى رأسهم « مارا » الذي يوحي الافكار الباطلة والاقوال الخبيثة والاعمال الشريرة ويجرب على الدوام بوذا وتلاميذه . وفي الفرس شياطين معروفة بالكذب والخداع تسكن القبور والجبال والارض المقفرة وتحاول اغراء البشر ولا تطرد بغير الصلاة ودعاء الكهنة والمجوس . وفي بابل واشور شياطين للطاعون والحمى والشلل والدم والنار ، وهي تعالج ايضاً بالصلاة والاستهواء، فكان الكهنة يراقبون العليل ويصغون الى ما يقول في حالة الهذيان ، فيكتشفون الداء واحياناً اسم العدو الذي تجب محاربته . وفي مصر رئيس الشياطين هو « سيت » اله الظلمات ، وما المرض سوى صراع بين الشيطان والانسان وعلاجه ايضاً بالتعاون والرقى .

وكانت البغضاء القائمة على التعصب للدين والوطن تدفع الناس

الى احتقار آلهة اعدائهم واعتبارها من الشياطين ، ولهذا قد تجد الاسم الواحد يطلق عند فريق على الاله وعند فريق على الشيطان.

وقد فعل اليهود كغيرهم فكانت آلهة اعدائهم الفينيقيين مثل مولوك وبعلزوب شياطين عندهم . ولنشأة بعلزوب هذا حديث طريف لا بأس من ذكره هنا .

لا يخفى اليوم على احد خطر الذباب وتأثيره في نشر الامراض كالحمى والكوليرا والملاريا ومرض النوم . ويروي كاوديوس اوليانوس الكاتب اللاتيني في مقتطفاتـــه ان سكان شواطىء الاستوابراس ، وهو نهر في الحبشة ، كانوا يضطرون كل عام الى الهجرة هرباً من اسراب الذباب الذي ينتشر كالضباب فيحجب عنهم وجه السماء. هذا الذباب هو « تسي تسي » ناقل مرض النوم ، يعيش على شواطىء الانهر في ظل الميموزا والموز فتقفر من اجله شواطىء النيل الاعلى والاستبراس طوال ستة اشهر الى ان يأتي الخريف باعتدال ايامه ولياليه . ولهذا كان المصريون يؤلهون شمس الخريف لانها تقهر الذباب وانتقلت هذه العبادة الى القيروان حيث كان يسمى هذا الاله الخاص « اخورس » ، ثم الى فينيقيا فسمي بعل زبوب اي (الاله الذباب) . ولكن اليهود حرفوا الكلمة الى بل زبوب وجعلوا الاله شيطاناً والذباب كذلك .

وكان لوثر لا يزال يعتقد ان الذباب مُشيطنة . فكان اذا وقع الذباب على وجهه او على كتابه يغضب ويصيح : « اليك عني يا قرد ابليس واتباعه ، كلما فتحت توراتي تأتني ايها الذباب الخبيث باقذارك كأنك تقول : هذا الكتاب لي وفي امكاني ان

الوثه بدهني » .

وبعض الشياطين في بلاد يوذا مأخوذ عن اصنام الوثنيين او عن الملائكة ، فان بين الملائكة اشراراً ، وأحد هؤلاء وقف في طريق بلعام عندما نهض لتلبية بالاق بن صفور ملك مؤاب الذي استنجده على اسرائيل (سفر العدد اصحاح ٢٢) ومثله الذي كان يعتري شاوول فيضرب داود بيده الكنّانة ليصرف الروح الشرير عنه (سفر الملوك اصحاح ١٦) وكذلك الذي اثار داود ان يحصي اسرائيل فبعث الرب وباء في اسرائيل فسقط من اسرائيل ٧٠ الف رجل ، وبعث الله ملاكاً الى اوروشليم ليدمرها ، واذ كان يدمر ، نظر الرب فندم على الشر وقال للملاك : كفى (سفر الايام الاول اصحاح ٢١) .

هذه الملائكة الساقطة او الشياطين كانت تعيش في عزلة وهي في ظمأ دائم وتعب مستمر ، فدبت الى جسم الانسان واتخذته لها مقراً تتغذى من مادته وتسبب له الهستيريا والصرع والجنون . ولهذا كان الاقدمون يسمون المصابين بهذه الامراض مشيطنين .

وكما كانوا يعزون الامراض العصبية الى الشياطين كانوا يعزون اليها ظواهر الارض الجيولوجية ، فتقول اسطورة يابانية ان جزيرة كيوشو احتلتها الشياطين . وقد اتتها من اقاصي العالم حاملة معها تلك الابخرة ذات الروائح الغريبة ، ففجرت فيها بحيرات من الماء الحار ولججاً من الاوحال المصهورة الغالية ، وقدحت في اعالي الجبال شرار النار ، فكانت تسمع طقطقة القشرة الارضية كما كانت تتدحرج الصخور فوق الجزيرة والبحر . وجرت انهار

من الحمم واشتعلت غابات الصنوبر وابتلعت الارض الاكواخ مع سكانها .

وظل سلطان الابالسة على الجزيرة عصوراً وهي تجدد فيها الاذى والشر الى ان جاءها يوماً ستة من الرهبان ونزلوا في تلك الارض غير المضيافة . هؤلاء الرهبان كانوا مشبعين بالحكمة وارواحهم منتزهة عن شوائب الارض ، فاختفت الابالسة لدى ظهورهم تاركة بخارها الكريه الرائحة وماءها الفاتر الغالي . وشرع الرهبان باقامة المعابد الجميلة مرصعة بكل ما تقدمه الصناعة الصينية من غريب الالوان والتزاويق ورنت على الشاطىء اجراس الهيكل تدعو المؤمنين من اقصى الارض الى هذه الجزيرة المطهرة .

وفي وسط هذه الجزيرة التي فجرت الشياطين براكينها أسست مدينة بيبو Beppu وحماماتها وبقيت الماء والاوحال في غليانها يؤمها الناس للاستشفاء، فتستقبلهم انفاس الكبريت الصاعدة من اعماقها ، وتملأ اسماعهم اصوات الماء المنبجس من اقنيته، وقد اصطبغت في غباره اشعة الشمس بالوان قوس قزح فيبدو للعين مشهد سحري قامت في وسطه تماثيل ابالسة الجحيم .

وابلغ هذه التماثيل أثراً صورة اله الحرب فان لها رأساً اسود مخيفاً يزينه قرنان قصيران وجسماً مركباً من الحمم او الشبه (البرونز) مرتكزاً على صخر وفخذاه غارقتان في الماء . وكأنه وهو يضع يداً على وركه ويقبض بالأخرى على الصولجان يهدد البشر من علو سلطانه .

وقد حفرت في الارض مراجل مختلفة الحجم يصلها الوحل الاصفر والاحمر وهو في حالة الغليان كأنه عصيدة سميكة تفور حتى اطراف القدر الذي تطبخ فيه ثم تغور .

ومن هذه التماثيل واحد اخضر كالبحر وآخر يلقبونه « غدير دم الابالسة » قرمزي جميل يصبغ الاقمشة التي تلقى فيه بلون احمر . اما مياه « جحيم الكاهن » فان حرارتها تبلغ درجة عالية حتى ان احد الزوار سقط يوماً فيها فذهب لحمه حالاً ولم يستطع ذووه ان ينتشلوه الا هيكلاً من عظام .

وقد اصبحت بيبو Beppu ملتقى كل من في اليابان من سحرة ومشعوذين يستغلون المارة والحجاج والمرضى فيستولون على عقولهم وعلى دراهمهم . والى جانب هؤلاء مفسرو الاحلام والناظرون في طوالع النجوم والعارفون بالبخت .

وقد زاد اقوالهم تأثيراً ونبوءاتهم مهابة بخار البراكين المتصاعد من حولهم كأنه ارواح التماثيل المنتصبة امام ابصارهم ، وهذا ما جعل جزيرة الابالسة ارض الحديث الموحي والشفاء العجيب .

الحماقة البشرية

•

لا اذكر ابن قرأت ان احد القواد العظام، واظنه فيليبكوس امبراطور القسطنطينية، كان كلما اشرف على معركة وازفت ساعة القتال يذرف الدمع سخياً حزناً على من سيقتل فيها من الرجال. وسواء أكانت دموع تمساح ام رحمـــة ام افراط في التعبد فهي شاهد على حماقة الانسان الذي لا يحجم عن قتل اخيه الانسان .

من يدري عدد الضحايا التي تفترسها الحرب من كل جيل منذ وجد الانسان على هذه الارض الى يومنا هـذا ؟ يقول فلاماريون ان الحرب السبعينية وحدها أطاحت بنصف مليون رجل، وحرب الانقسام في اميركا بمليون ، وحروب الامبراطورية بخمسة ملايين. واذا اضفنا الى ذلك من قتل في حروب ايطاليا والنمسا وغيرهما بلغ مجموع القتلى ١٩ مليوناً .

وهكذا منذ بداية التاريخ لاينقضي جيل دون ان تبيد الحرب منه مثل هذا العدد. وقد يبلغ عدد القتلى في المعركة الواحدة مئتي الف رجل كما في غارات اتيلا او المواقع التي هزم فيها ماريوس الروماني قبائل التتون والسمبر ، او حروب جنكيز خان وتيمورلنك اللذين كانا يقيمان في كل محطـة من طريق الفتوحات

اهراماً من رؤوس القتلى . فيكون مجموع من يموت في كل عصر من العصور بالحروب الدينية والسياسية والاهلية على تقـدير فلاماريون اربعين مليوناً .

منذ طروادة وداود وسميراميس وسزوستريس وكسرى وقمبيز والاسكندر اربعون مليوناً من الرجال تراق دماؤهم كل مئة سنة ، وكثيراً ما يرافق هذه الدماء الحان المرتلين والتسابيح للآلهة . اربعون مليوناً كل مئة سنة لو جمعت معاً لبلغ عددها ملياراً وربع المليار اي ما يقرب من عدد سكان الارض اليوم . يا له من رقم هائل . اربعون مليوناً كل مئة سنة ، اي ٤٠٠ الف كل سنة ، اي ٣٠ الفاً كل شهر ، اي ١١٠٠ كل يوم ، اي واحد في الدقيقة . فكأن البشرية قائمة للذبح ابد الدهر لا تسقط السكين من يدها دقيقة واحدة . لقـد ورث الانسان الحرب عن الحالة الحيوانية ولا يريد ان يتخلص منها . مئة الف من السنين على حساب البعض ، ومئتا الف على حساب البعض الآخر ، أتت على هذا الموجود منذ اتيح له الوجود ، وهو يناضل ويقاتل وهذا ما يسمونه تنازع البقاء .

تبدلت الوسائل ولم تتبدل الطبـاع وتحولت اسلحته من النبابيت والسهام الحجرية الى المدافـع والمتفجرات وشهوة الدم باقية كما هي .

يقدر فلاماريون ما اريق من الدماء في هذا المدى الطويل من التاريخ بنحو من عشرين مليوناً من الامتار المكعبة اي ما يجعل منها نهراً كنهر السين يجري وانت تنظر اليه من مكانك يومين

متواصلين قبل ان ينتهي ، وتسير مراكب البحار على امواجه الحمراء كما تسير اليوم في السين، يتصاعد منها نحو المباني والقصور من الروائح ما يتصاعد من الحفر في جحيم دانتي ، ولو بُعث هذا المليار وربع المليار من القتلى ونصبت رممهم الواحدة فوق الاخرى لكان منها سُلّم بشري يصل الى القمر ويدور من حوله ويوالي صعوده في اللانهاية الى ابعد من مليون من الاميال . ولو أخذت الرؤوس وحدها وُصفّ الواحد الى جنب الآخر لانتظمت عقداً يحيط بالكرة الارضية ست مرات .

أضف الى هذه الخسائر في الاجسام والارواح ما يلحقها من الخسائر الادبية باتلاف منتوجات الفكر البشري كما فعل هولاكو عندما خرب بغداد ، فقد أقام جسراً من الكتب في دجلة لتمر عليه جنوده .

واذا نظرنا الى اسباب الحروب وجدناها تافهة على حد قول الشاعر بنير « صغيرات الامور كبيرها » . فمن حروب طروادة التي كان سببها اختطاف امرأة الى ما عقبها من الحروب الى الحرب العالمية الأخيرة التي لم يعرف لها مثيل لم يكن السبب يوماً على قدر المسبب . ولكن الطمع لا ينفك يلعب بالرؤوس فتختار البشرية افضل اولادها واقواهم ترضعهم وتغذيهم وتنميهم حتى اذا بلغوا زهرة الشباب ارسلتهم الى الموت . طمعٌ جنوني يجيش في رأس الواحد فيجر القطيع البشري الى الذبح .

ويضطر الباقون الى الدفاع عن انفسهم فيجارونه مكرهين . اين هذا من الحياة الهادئة العاملة المفكرة السعيدة يريدها الانسان

ويمنعه عنها الانسان .

وقد يظن، وبعض الظن اثم ، ان الحروب ضرورية لمنع الازدحام وتكاثر البشر تكاثراً هائلاً يضيق عنه وجه البسيطة على حد قول الشاعر :

سبقنا الى الدنيا فلو عاش اهلها منعنا بها من جيئة وذهوب

مع انه في امكان الارض ان تغذي عشرة اضعاف من عليها، كما ان التقتيل لا يؤثر في تخفيف العدد لان الانسانية في تكاثر مستمر على نسبة مولود واحد في الثانية .

فالحرب في كل حال آفة على البشرية ،ولو قدر الانسان ان يتخلص منها واستغنى عن ضرورة الاستعداد لها وعما يسمونه السلم المسلح لاستطاع ان يلبي دعوة امه الارض بالاكثار من الايدي العاملة فتدر عليه خيرات لا تحصى . ناهيك بالاموال التي تنفق على ميزانية الحرب في كل دولة،فقد قدروا ما انفق منها في المئة الماضية بسبعمئة مليار،ولا نتكلم عما انفق في الحرب العالمية الأخيرة . هذه الاموال لو انفق معشارها فيما ينفع كتعميم التعليم المجاني في كل صقع وتحسين وسائل المواصلات بين البلدان باسرع واوفى مما هي عليه الآن وازالة الحدود الجمركية بين الممالك وانشاء المستشفيات الكثيرة وامداد الباحثين والمخترعين بما يحتاجونه لوفرت للانسان اسباب هنائه واستطاع ان يتغلب على الامراض المستعصية وان يطيل حياته الى اقصى ما يمكن ،ان لم يتمكن من التغلب على الموت .

حلم جميل لا أدري ولا احد في الناس يدري اذا كان في

الامكان استحالته حقيقة . وبينما العقلاء من الناس يفكرون في تحقيقه كله او بعضه فالارض لا تزال تدور وتشهد حماقة البشر وتحتمل التقطيع والتخريب وتلبس الحداد وتغص بدم ابنائها المهراق على صدرها ...

العنصرية الروحية

•

العنصرية كلمة مشتقة من العنصر ومعناه في اللغـــة الاصل والحسب ، وقـد اتخذها هتلر سلاحاً يهوّل به على العالم للاشادة بتفوق الشعب الالماني على سائر شعوب الارض ، مدعياً ان في عروقه دماً آرياً نقياً يجعل كل مخلوق دونه . ولكن هذه الدعوى لا صحة لها على الاطلاق، وهي منقوضة بالادلة العلمية . وما القول بالدم الآري النقي الا اسطورة من الاساطير وخرافـــة من الخرافات يرمى بهـا الى الدعاية وتضليل العقول . وكل يوم لنا من الشواهد ما يدل على فساد هذا الزعم ، ويظهر باجلى بيان ان الشعوب لا تتفاضل بالاصل والاحساب، وان كل امة قادرة على التفوق عندما تدق ساعتها ففيها عباقرة كما أن فيها خاملين .

ولكن هناك عنصرية اخرى يمكننا من نتائجها ان نسميهـا عنصرية الروح لانها تخلع المزية على بعض الناس وتؤهلهم لاحراز التفوق العقلي والادبي والمادي . ما هي هـذه العنصرية ومن اين أتت ؟ أتكون ما يسميه علماء اللاهوت النعمة ، اي منحة الهبة تهدي من ينعم بها الصراط المستقيم وبدونها لا يفهم معنى للايمـان والرجاء والمحبة ؟ أجد نفسي هنا مضطراً للوقوف قليلاً عند هذه

الكلمة والقاء نظرة قصيرة على التاريخ لدرس نشأتها وتحليلها . ان أول من تكلم عن النعمة بولس الرسول فيقول في رسالته الى أهل أفسس « فانكم بالنعمة مخلصون وذلك ليس منكم ، انما هو عطية الله » . وقد يُشتمّ من هذا القول انكار الارادة الحرة في الانسان، وهذا ما حمل المسيحيين من الذين تشربوا الفلسفة اليونانية وتعاليم أفلاطون على المعارضة . وقام راهب انكليزي يدافع عن هذه الحرية فقال ان آدم مسؤول وحده عن خطيئته ولا شأن لذريته بها . ولكنّ هذا القول يهدم عقيدة الخطيئة الاولى من أساسها ولا يبقي لضرورة الخلاص معنى . فلم يكن بد من قيام أئمة الدين عليه وفي طليعتهم القديس أوغسطينوس الذي حاول التوفيق بين النعمة والارادة الحرة ،فجعل الانسان مسؤولاً عن اعماله لانه حر التصرف قادر على مقاومة النعمة وعدم الانقياد اليها ، الا انه لم يفلح بدليل أن أشياع « الجبرية » أي الذين يدعون ان الانسان مسيّر غير مخير ، يعمل ما أراده له الله منذ الازل ، ما برحوا الزمن طويل من بعده يستشهدون بأقواله .

وجاء بعده توما الاكويني فلم يكن اكثر توفيقاً في حل هذا المشكل ، وظل النقاش محتدماً أزماناً ولكنه لم يتعدّ جدران المدارس حتى عهد الاصلاح . فقام لوثر وكالفن يقولان ان الله يصنع في الانسان كل شيء خيراً كان أو شراً، فهو محكوم عليه مقدماً بالنعيم أو الشقاء. فكان هذا القول أيضاً حكماً بالاعدام على حرية الانسان واختياره. وعقد البابا كليمان الثامن مؤتمراً من الكرادلة والدكاترة للبحث في موضوع الارادة الحرة ، فبقي يعمل تسع

سنوات وسط معامع الجدل دون جدوى . وأخيراً جاء جانسنيوس مطران ايبر ، فألف بعد الدرس طوال عشرين سنة كتاباً منع من نشره في حياته وفيه يقول ان الانسان أضاع حريته منذ طرد من الفردوس ،فهو الآن مسير بالنعمة . فعادت النار الى الاستعار وانفرجت مسافة الخلف بين الكاثوليك ،وكان للكتاب ذيول ونتائج لا محل لذكرها هنا ، حتى ان لويس الرابع عشر تدخل في الامر،وكانت هي السبب الذي اوحى الى باسكال « رسائله الاقليمية » .

هذه لمحة تاريخية موجزة عن النعمة . ولا ريب ان السلف الصالح اراد بها فيما اراد التعليل عن التفاضل الذي يحصل في الاخلاق والاعمال ، ولكنه حصرها في الناحية الدينية . وعندي انه يمكن اليوم تفسير هذا التفاضل عن طريق العلم لانه أمر فسيولوجي مرتبط بتركيب الانسان. وهذه هي العنصرية الروحية التي اريد التحدث عنها ، ويحق لي ان اسميها نعمة دون ان أتهم بالتجديف ، لانه سواء أكانت النعمة هابطة من فوق ام مستقرة في الهيولى ، فهي من فضل الباري تعالى . هذه النعمة تختلف حسب الاشخاص وحسب الاوقات ، فيشعر المرء احياناً كأنه قادر على نقل الجبال من مواضعها،واحياناً يرى نفسه اضعف من دودة الارض . ذلك لانها تتبع حالة الجسم والغدد العاملة فيه ، هذه الغدد وخصوصاً الصماء التي اهتدى العلم اليها منذ عهد قريب . يقول الدكتور كارل في كتابه « الانسان هذا المجهول » ان القديسين العظام كانوا اقوياء الغدد ، وان الانسان لا يصلي

بقلبه فحسب بل بسائر عضلاته او اعضائه .

هذه الغدد هي ميراث الانسان الذي يتسلمه منذ يتصور في الرحم وعليها يقوم استعداده الفطري ، فترى هـــذا قوي البنية وذاك ضعيفها ، هـذا شديد المراس يحتمل المشاق ويقوى على مقاومة الامراض ، وذاك سريع التعب يدب الضعف فيه لادنى سبب . الواحد يأكل ويحرق في اعماق انسجته ما يأكل ، والثاني بطيء التغذية الخلوية من تمثيل وتحليل ، فلا يسلم من داء النقرس او الحصاة او السمن المفرط وما شاكل .

هذه الغدد هي التي تجعـــل من الانسان ذئباً ضارياً او حملاً وديعاً ، وتحوّله الى شيطان رجيم او ملك كريم . فالمعدة والكبد وغشاء الكليتين والغدة الدرقية وسواها تسبب بفرزاتهـا التي لاتزال نجهل الكثير من اسرارهـا شتى حالات النفس من خمول وهمة وضعف وقوة وحزن وسرور وغضب ورضى . والذي يتمتع منها بالجيد القوي المنظم فهو المعد للتفوق على سواه ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما .

هذه هي عنصرية الروح ، وكان الاولى ان اسميها عنصرية الفرد لولم تكن النتيجة واحدة ، وهي تلقي نوراً جديداً على نظريـة القديس اوغسطينوس من ان الانسان قادر على مقاومة النعمة ، لان الذي يدير هذه الغدد هو العصب العاطف Nerf Sympatique والارادة تسيطر على هذا العصب وتستطيع بواسطته تحويل مجرى الدم والهضم والتغذية ، وبالتالي تبديل الاخلاق والتغلب على المزاج فهي اذن لاتزال حرة ، وهي اذن قادرة على المقاومة . روى

ليون دوده أن طبيباً كان مصاباً بالسل المعوي والاسهال وكان مضطراً الى العمل ، فظل طوال ثلاث عشر سنة يحارب داءه بقوة ارادته ، فيمضي نهاره في زيارة المرضى وصعود السلالم متغلباً على اسهاله، حتى اذا اقبل المساء وانتهى من واجبات المهنة القى سلاحه وترك المقاومة وعادت علته اليه .

هذه العنصرية هي التي تخلق التفاضل في الاعمال والادب وشرف النفس وبعد الهمم والصبر والتضحية والشجاعة وتجعل من الناس ابطالا وشهداء وانصاف الهة . وهي التي انطقت شعراء العرب بالحكمة والفخر فقال عامر بن الطفيل :

واني وإن كنت ابن سيد عامر
وفارسها المشهور في كل موكب

فما سودتني عامر عن وراثة   ابى الله ان اسمو بام ولا اب
ولكنني احمي حماها واتقي   اذاها وارمي من رماها بمنكب

وقال غيره :

إنا وان كرمت اوائلنا   لسنا على الاحساب نتكل
نبني كما كانت اوائلنا   تبني ونفعل مثلما فعلوا

وقال آخر :

مالي عقلي ، وهمتي حسبي   ما انا مولى ولا انا عربي
إن انتمى منتم الى احد   فانني منتم الى ادبي

يوليوس قيصر وشكسبير

•

اعظم ملك يكتب عنـــه اعظم شاعر ، ولكن لا لتمجيده والتغني بانتصاراته فهو يتبع التاريخ دون ان يتقيد بالتاريخ : يوليوس قيصر ، الذي فاق هنيبعل والاسكندر فكان اول من استولى على الرين والاوقيانوس ، وفرض الجزية على جرمانيا وبريطانيا وبسط سلطانه فوق آسيا وافريقيـــا ، وافتتح اسبانيا وبلاد الغال ، وانتصر على « فرسنجتوريكس » في الزيا Alésia وعلى فرناس في Zéla وبطليموس في الاسكندرية وبومباي في « فرسال » ومشى من نصر الى نصر حتى دفع كاتون الى الانتحار واوقع العالم في العبودية – ينظم فيه شكسبير رواية تمثيلية لا ليظهر بطولته ويشيد بمزاياه ويعدد اعماله وفتوحاته ، فهي في نظره لا شيء أمام الغيرة الوطنية والعدل والنزاهة التي كان يتحلى بها قاتله بروتوس. فالرواية تحمل اسم القيصر غير ان الدور الاول فيها لبروتوس ، والاهمية ليست لذاك القائد العظيم الذي افتتح ثمانمئة بلد ودوّخ ثلاثين امة وعبأ للحروب ملايين من الجند، بل لهذا المواطن المحبوب من الشعب الذي قال عنه المؤرخ بلوتارك انه كان اكرم الناس خلقاً ، واصفاهم شيمة ، واعفهم لساناً ، واقوامهم جناناً .

ان الذي حمل شكسبير على قلب التاريخ في علاقة الاشياء والحوادث بعضها ببعض، اذا جاز لنا هذا التعبير، يرجع الى سببين : الاول ان شكسبير كان شاعراً انسانياً فهو لا يفصل بين وظيفة الشاعر وواجبات الانسان، ولا يلتمس الفن لاجل الفن وحده بل يرى في الشعر رسالة اصلاح وتهذيب بمناصرة الحق ومحاربة الباطل. وما المسرح في نظره سوى مرآة تعكس للمجتمع فضائله وعيوبه، والغاية منه لا تقف عند تسلية الجماهير بل تتعداها الى تنوير الاذهان وارشاد النفوس بعرض حياة ابطاله عرضاً يقصد منه الى الحكم لهم او عليهم واستخلاص العبرة النافعة والموعظة الكبرى. ولهذا تجد الفلسفة في اقواله تنبع من كل جانب، وهي مستوحاة من حالة الاجتماع والبيئة التي عاش فيها. ومن الصعب ان تمر برواية له لا تشير الى بعض مواطن النقص والفساد وتهور الاخلاق التي عاش فيها ذلك الجيل، ولا تكثر فيها مغامزه ليخلص منها الى مغزى ادبي او درس اجتماعي.

في رواية «هملت» مثلاً يريك خطر التردد في الرأي عندما يرتفع صوت الواجب، وفي «الملك لير» يظهر التباين بين سلطة الملك الزائلة وسلطة الاب الطبيعية والاخطاء التي تتعرض لهـا الثانية اذا تحكمت بها الاولى. وفي «عطيل» يكشف لك عن اعماق الهاوية التي تحفرها يد الغيرة العمياء، وفي «كما يروق لك» ينحي باللائمة على حقوق البكورية التي ما برحت طوال القرون الوسطى عاملة في انكلترا على تضحية الاخوة في سبيل مصلحة البكر. وفي «كل شيء حسن اذا حسنت نهايته» يطعن في امتياز الطبقات ويجبر

الارستوقراطية على الاتحاد مع الشعب، وفي «تاجر البندقية» يحارب التعصب الديني بتزويجه مسيحياً من ابنة يهودي، وفي «يوليوس قيصر» يناهض الاستبداد . وهنا نصل الى السبب الثاني في ما رمي اليه شكسبير بانزال هذا العاهل العظيم عن عرش التاريخ. فان الشاعر لم يكن في هذه الرواية الا معبراً عن الشعور العام السائد في عصره، وهذا الشعور يختلف كل الاختلاف عن شعور العصور الوسطى لأن الافكار كانت قد تطورت تطوراً كبيراً في الخمسمئة سنة الاخيرة، فتبدلت اراء الناس في السلطات والعقائد، ودبت في نفوسهم روح جديدة فيها شيء من التمرد والخروج على التقاليد القديمة، وهذا ما نتبينه في اجلى مظاهره اذا قابلنا بين ما كتبه شكسبير وما كتبه دانتي لثلاثمئة سنة قبل شكسبير في كتابه «الكوميديا الالهية».

يهبط دانتي الجحيم بصحبة الشاعر فرجيل، وبعد ان يجتازا معاً الحلقات الثمان الاولى من جهنم يصلان الى الهوة التي يقيم فيها قايين قاتل هابيل، ثم نراهما يتقدمان على بحيرة من الجليد يرتعش بين امواجها المتجمدة القتلة والسفاحون الذين عرفهم في حياته. فهنا الاخوان البرتي وقد جمد البرد دموعهما فاصبحت كالكفن لهما، والى جانبهما ينتفض فوكاسيا قاتل عمه، وموردك الذي قتله ابوه لانه حاول هو ان يفتك به، ومسكروني الذي ذبح ابن اخيه ليسلبه ماله، وهناك شيخ ممدود على ظهره فوق الامواج المتبلورة هو الراهب منفرودي الذي قتل كل انسبائه في وليمة أعدها لمصالحتهم. وبعد ان يمر الشاعران بهذه الاشباح القاتمة يتابعان السير وفرائصهما ترتعد من البرد والخوف الى ان يقع بصرهما على لوسيفروس رأس

الابالسة ، وقد بسط ظله الجبار على ذلك الاوقيانوس الجليدي الذي قذف به اليه الغضب الالهي . لقد تحول جمال هذا الملاك الساقط الى قبح فظيع ، وصار امبراطور مملكة الالام كما يسميه دانتي أشبه بالخفاش ، وله ثلاثة وجوه تنبسط عليها ستة اجنحة ، وفي كل وجه فم يدق على الدوام ويطحن تحت اسنانه واحداً من أشقى المحكوم عليهم باللعنة الابدية ، ففي الفم الاول يوداس الاسخريوطي ، وفي الثاني بروتوس ، وفي الثالث كاسيوس رفيق بروتوس . وبعد هذا المشهد يأخذ الليل بالهبوط فيصعد الشاعران وقــد رأيا ما أرادا رؤيته .

نرى ان الشاعر الايطالي في ذلك المنفى الجهنمي الذي اخترعه خياله قـد اختار لقاتل القيصر عقاباً لا يختلف في الشدة عن عقاب الذي أسلم المسيح الى اعدائه . فقاتل الملك عنده كقاتل المسيح ولا فرق في الذنب بين من خان السيد المسيح ومن خان ملكاً أو امبراطوراً . ولا عجب فان دانتي عبر عن فكرة زمانه وجيله ، فان القرون الوسطى في ايامهـــا الكاثوليكي والامبراطوري لم تكن تميز بين من يعتدي على مؤسس المملكة ومن يعتدي على مؤسس الكنيسة ، والدم المراق على قدمي تمثال بومباي لا يقل قيمة عن الدم المسفوك على الجلجلة لان سلطة القيصر على الارض تمثل عندهم سلطة المسيح في السماء . وكيف لا يخضع العالم المسيحي لذلك العهـد لعظمة القيصر وقد اعترف بها المسيح نفسه فقال : اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟ ألم يكن هذا القول تأييداً لسلطان القيصر ، ومصداقاً لاغتصاب الفاتح ، واستحساناً لعبوره نهر الروبيكون الذي

حرمته الالهة ، وغفراناً لانتهاكه حرمة الجمهورية ، وحرماً قاطعاً على اعدائه من انصارها ؟

هكذا كانوا يفسرون الانجيل في القرون الوسطى ، فكانت النتيجة تقديس اسم القيصر بقدر ما كان اسم اعدائه ممقوتاً . وما برحوا طوال الف عام واكثر يجافون ذكر بروتوس كما يجافون ذكر يوداس .

ثم جاء عصر الانبعاث فقامت الثورة على سلطة الملك كما قامت على سلطة الكنيسة ، وافضى الجدل في الدين الى الخصام في السياسة ، وقدّر لشاعر بروتستانتي ان يعلن الثورة في الميدان الاجتماعي كما اعلنها قس بروتستانتي في الميدان الديني: هذا باستناده الى النصوص المقدسة ، وذاك الى التاريخ . فقد قارع لوثر البابا والتوراة على لسانه ، وحكم شكسبير على القيصر وبلوتارك في طيلسانه .

ولم يكف المفكر الحر ان يحكم على القيصر بل اراد الانصاف لبروتوس ، هذا القاتل الذي بهظته لعنة القرون الوسطى . لقد نهض به شكسبير وانتشله من ذلك الحكم الجائر المشين ، واستحضر بسحر قلمه تلك الصورة المنسية التي زجها دانتي في اعماق جحيمه ، ورفعها الى مصاف الابطال بين هتاف الاجيال الجديدة . فاذا انت قرأت رواية يوليوس قيصر لشكسبير تشعر بالاعجاب الشديد لا لانتصارات القوة الوحشية ، ولا للبلدان المخربة بالحديد والنار ، ولا للأنهر المغطاة بجثث القتلى ، بل لذلك الفتح المبين الذي تنتصر به الروح السامية على نفسها فتضحي العاطفة في سبيل المبدأ .

يزعم بلوتارك في كتابه «حياة بروتوس» ان بروتوس ابن القيصر

وهذا سبب عطف القيصر عليه بوجه خاص. غير ان شكسبير لا يذكر ذلك تصريحاً او تلميحاً لئلا تضعف حجته، فان السامع اذا عرف ذلك لا يسعه إلا ان يرمي بروتوس بالعقوق، فتضيع الغاية الادبية من عمل بروتوس ويساور اعجاب الناس شيء من الاسف والندم. لقد كتب فولتير في الموضوع وتبسط فيه فوضع بروتوس بين حبه لابيه وحبه للحرية مما يترك اثراً سيئاً في نفوس السامعين، فلا يدري الناس أكان بروتوس على صواب أم خطأ عندما انكر صوت الطبيعة ليصغي الى صوت الاجتماع. ولا تجد شيئاً من هذا في شكسبير فهو يحوّل كل أعجابك نحو بروتوس، وهذا ما تشعر به حالاً عند رفع الستار.

ويقول «بلوتارك» في كتابه «حياة بروتوس» ان كاسيوس الهب بروتوس ودفعه الى التآمر والقتل. وفي كتابه «حياة القيصر»، يذكر ان انطونيوس عرض التاج على القائد في عيد اذار. فجمع شكسبير بين هذين المشهدين على وجه تبدو فيه الاهمية لتلك المأساة وذلك الحديث السري بين وطنيين يبث كل منهما الآخر أخفى ما في نفسه، تاركاً من وراء المسرح تلك المهزلة الفخمة التي يتظاهر فيها الدكتاتور وهو مستو على عرشه الذهبي برفض التاج، فيسمع الحضور عن بعد انغام الموسيقى وهتاف الجماهير، بينما هو يشهد عن كثب حركة المؤامرة ويسمع همس المتآمرين.

وفي هذا الحديث ينتزع كاسيوس من بروتوس هذا الاعتراف: احب القيصر، ولكن لا اريد ان يختاره الشعب ملكاً له. ولا يفتأ كاسيوس يعدد عيوب الطاغية ويتبسط في ذكر استبداده

ومحاربته حرية الفكر الى ان يقتنع بروتوس فيضحي حبه للقيصر في سبيل الخير العام .

وهكذا يتمشى القارىء او السامع مع المؤلف بالعطف على بروتوس دون القيصر منذ حديث المشهد الاول الى المؤامرة، إلى الاغتيال ، الى ختام الرواية .

كتب للمؤلف

•

خواطر في الصحة والأدب

الخداع والحب

حول سرير الامبراطور

مملكة الظلام

الخطابـــة

على المنبر

كيف تغلب الانسان على الألم

رفيف الاقحوان

دنيـــا وأديان

تحت الطبع

الأحياء والأشياء

من نافذة الطب العقلي

قصص وغصص

الحبّ الحجري

الرمزية والشعر الرمزي

خطب ومحاضرات

الفهرست

•

٥١/٣/١٣١

DATE DUE

